

ابراهيم صموئيل



SCANNED BY
JAMAL HATMAL



قصص قصيرة



کتابخانه

صدر للمؤلف

رائحة الخطو الثقيل — قصص قصيرة

دمشق — دار الجندي

ط ١ ١٩٨٨

ط ٢ ١٩٩٠

الغلاف للفنان :
يوسف عبد لكي

ابراهيم صموئيل

الفتنة

قصص قصيرة



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : تشرين الأول ١٩٩٠

دار الجندي للنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب. : ١٠٥٣٠ - هـ : ٤٢١٢٥٤

الى الاصقاس. الاصقاس.

الناس.. الناس _____

قبل أن يدير السائق المقود بحركة مفاجئة ، ويجيد الباص إلى يمين الشارع ، في المسافة القصيرة بين موقفى القزازين والمعرض ، ويتوقف ... كان كل راكب من الواقفين يمسك بمسند مقعد مجاور ، أو أنشودة جلدية ، أو حافة نافذة ، أو كتف راكب آخر .. وهم يتأرجحون ويتلاطمون من عزم السرعة وحدة الانعطافات لدى تجاوز السيارات الأخرى ، فيما كانت عيونهم تشخص إلى الواجهة الأمامية نحو الطريق — كأنهم يشاركون في القيادة — يشهق بعضهم مع فرملة خاطفة ، وبعضهم يبسمل ويحوقل لحظة اقلاع جديد ، يتلهله بعضهم لو مال الباص ، ويلعن بعضهم إن فشل في تجاوز أو عبور ... تراهم قلقين مضطربين فزعين ، كما لو أنيطت قلوبهم إلى عجالات الباص ووضعت أرواحهم على أكفهم حتى تأتي ساعة الفرج ويصلون الموقف الأخير ..

وفوق هذا كله ، فإن غزارة الأمطار صبيحة ذلك اليوم قد أسهمت ، كما يبدو ، في دبّ الذعر والتوجس في نفوس الركاب من انزلاق مفاجيء أو تصادم مباغت يودي بحياتهم جميعاً أو حياة غالبيتهم على أقل تقدير .

ولذا ما إن نحاد الباص وتوقف حذاء الرصيف .. حتى رأيت وجوه الواقفين قبل الجالسين ، وقد بثت كأنهم استعادوا أنفاسهم بعد احتباس طويل !

غير أن البشاشة لم تدم سوى لحظات ، إذ سرعان ما شدَّ الفضول
الركاب لمعرفة سبب التوقف هذا ، خصوصاً وأنه تمَّ على عجلٍ ، وبين
موقفين ، وفي ساعة الصباح ، وقت توجّه الناس إلى وظائفهم وأعمالهم .
ولم يحتج الأمر إلى انتظار !

فحال توقف الباص ، التفت السائق، واضعاً سببته على صدغه ،
وقال لراكب مربوط يقف خلفه ، بنبرة عصبية وصوت ممطوط :
— أخي ... أنا بمشي على كيفي ، مو على كيفك
وكيف الثاني والثالث ... فهمت !؟
ردُّ الراكب المربوع بتحد :

— لأ سيدي ما فهمت! بدك تمشي على كيفي وكيف
غيري وعلى مهلك كان ... إي خير إن شاء الله طائر طيران !؟
بظلم ما بظلم انت ما دخلك !

— دخلك ونص .. انت مو وحدك بالباص .. معك
أرواح .. العمى صبح !
هاج السائق :

— العمى بعميك ولا .. أنا ما بمشي غير على كيفي ..
ما عجبك شرف - انزبل !

— لك شو انزبل ما انزبل .. هادا باص أبوك هاد !؟
— إي سيدي .. باص أبي ونص ..
— لأ سيدي .. مو باص أبوك ، وبدك تمشي على مهلك
مو بكيفك ..

— لأ باص أبي .. وأنت بدك تنزبل ورجلك فوق رقبتك
وهبَّ السائق واقفاً ، فيما اندفع بعض الركاب يفصلون بينهما
صاح راكب من الخلف :

— وكلوا الله يا جماعة .. الشغلة مو محرزة ..

التفت الراكب المربعوع إلى الخلف :

— يا أخي شلون مو محرزة .. مانك شايفه طابير مثل

الطيارة !؟

صاح السائق :

— وبدي طير مثل الصاروخ كان .. أنا سائق الباص مو

أنت .. شرف علمنا السواقه .. حلو والله !!

تدتل ركب موجهأ كلامه للرجل المربعوع :

— ولك يا خيو .. ليش من كل هالناس ما حدا حكي

غيرك ؟ إي اترك الزيلة يسوق على كيفه .. بدنا نروح لشغلنا !

عقب السائق ساخرأ :

— لأنه حضرته لهوجي وكثير غلبه .

ردّ الراكب المربعوع :

— ولك لأنك أنت أهوج وطايش .. بس مو الحق

عليك .. الحق ع الساكتين لك .. لأنه والله لو في مين يردك

ما كنت عملت فينا هيك ..

هبّ السائق ثانية :

— بتطلع ستين أهوج وحمار ولاه ..

وكادا يشتبكان لولا ازدحام الركاب وتدخلهم . صاح رجل عجوز

مغتمأ برهة صمت :

— يا ابني والله عيب .. امشي وتوكل ع الرحمن ..

ردّ السائق :

— لا وحياة عينك .. ماني متحرك إلا ما ينزل وأمشي

على كيفي .. وهه ..

وأوقف المحرك فكم هديره وعلا هدير الركاب . علّق فتى جالس في

الخلف :

— إي شو عليه .. يللي بيت أهله على مهله ..
أضاف رجل نحيل جالس قربه :

— يا جماعة .. المستعجل ياخذ تكسي ..
عقبت امرأة واقفة تحمل طفلاً :

— يا أخي منشان الرسول إمشي .. يوه .. الولد رح
يموت من البرد !

ردّ السائق مشدداً على كل كلمة كمن يعلن عن بضاعة :

— ماني ماشي .. لحتى الأفندي .. يشرف وينزل
ثم رفع ساقيه فوق غطاء المحرك واستند إلى النافذة .

راكب طويل بدين يبلغ الأربعين تقريباً ، كان يقف جوار الراكب
المربوع . التفت إليه يلكره نابراً :

— وحضرتك ليش كثير غلبه .. ما تترك السائق يمشي
على كيفه وما تدخل ؟!
إندهش المربوع :

— شلون على كيفه ! يهورنا أحسن ؟ نحن عبيد مراقه ؟!
ردّ الرجل الأربعيني بحزم وتحدّ :

— إي سيدي .. نحن عبيد مراقه .. احترم حالك .. هو
موظف ويعرف مصلحة الناس أكثر منك .. فهمت ؟

ورغم أنه لفظ « فهمت ؟ » هذه بلهجة التهديد والوعيد .. غير أن
الرجل المربوع علق متعجباً :

— وإذا كان سائق الباص ..؟! يعني نحن طرش غنم !
يعني بتصير أرواح كل هالناس على حسابه ؟!

ولم يكذب يلتفت نحو الراكب ، كما لو كان يسألهم ، يأمل
مؤازرتهم ... حتى أمسكه الأربعيني من كتفه ودفعه نحو الباب دفعا .

عندها ، بدوا الركاب وكأنهم ، بفارغ الصبر ، كانوا ينتظرون هذه اللحظة ... فتزاحمت الأيدي تدفعه ، وتداخلت التعليقات :
— إي نزلو خيو .. حاجتو فلسفة ..
— لك نزلو .. نزلو .. مو ناقصنا محامين ..
— نزلو .. يعني منشان زله نتعطل عن شغلنا ..
— نزلو .. يقطع عمره شو كثير غلبه .. كنا وصلنا هلق ..

— إي نزلو .. متنا من البرد .. يوه ..
من داخل الباص ، وعبر نوافذه المغلقة ، بدا الرجل المربع حزينا ومفرداً تحت المطر ، يحاول مداراة خيبته واستيائه بتطويحات طائشة من يديه .. أما الركاب في الداخل ، فقد انتشرت بينهم ، للوهلة الأولى ، حمى الهرج ، وكأنما لذ لهم انكسار الرجل المربع وعلام الظفر على وجه السائق ، فأفلتوا تعليقاتهم المشجعة :
— شد .. الله مع دواليك ..
— روح .. لا تلحقني مخطوبة ..
— مر وعدّي بس اوعا التحدي ..
— روح .. شايفلك ..

سوى أنهم ، في الوهلة الثانية ، حين عشق السائق السرعة ، وجأر الباص مقلعاً كتور هائج ... انخطفوا إلى الخلف وشهقوا ، ثم استروا صامتين ، يمسك كل منهم بمقعد مجاور ، أو أنشودة ، أو كتف ، أو نافذة .. يتمايلون ويتلاطمون .. مبسملين ، قلقين ، متلهلين ، مدعورين ، كما لو أن قلوبهم أنيطت إلى عجلات الباص ، ووضعت أرواحهم على أكفهم حتى تأتي ساعة الفرج ويصلون الموقف الأخير ..

حزيران / ١٩٩٠

شتاء طویل



— جاؤوا ...

ما كادت تصيح وتنتفض مخلوعة القلب ، كأنما حفَّ جلد أفعى بجسدها العاري تحت اللحاف .. حتى نتر يده كما لو سرت العدوى إليه من خلف عنقها وغائر نهديها ، وانتفض مثلها فانكشفاً معاً : هو بصدرة العريض تتلألأ فوق شعيراته حبيبات العرق اللامعة ، وهي بنهديها المرتجفين فوق بركان قلبها ..

صامتين ، مترقبين ، وجلين ، التفتنا نحو الباب . لا ندهة ولا صوت . سكون رابض منتظر كنيم ، لا يشققه سوى وجيب قلبيهما ، وتدافع مرتبك لأنفاسهما يزيد في ترقبهما وخوفهما .
برهات قليلة ، مرت كأنها ساعات ، ظللاً في جمودهما . بعدها ، نظر إليها يسألها بعينيه الشاكّتين ، فردّت عليه بنظرات مضطربة هلعة .
حرك رأسه دون أن ينبس .. فقلبت شفتها السفلى تزيد في حيرته ، وبقيت عيناها محمقتين بفرع مهم .

حاول بصوته كبت خوفه النابت ، فهمس :

— ما بكِ ؟!

باحث بصوت بدا وكأنه مطمور تحت اللحاف :

— أما سمعت ؟!

بلمحة ، فثّش ذاكرته فوجدها خاليةً من أي صوت أو حركة غريبة . ربما لأنه كان غارقاً في أحضانها كما لو كان غاطساً في البحر . أو

بسبب من طفيان لهاته الجموح . أو ربما سمع ولم ينتبه ، أو انتبه ولم يأبه أو
يخمن كما ، لا بد ، حمنت !

أمسك يدها تحت اللحاف فأحس بارتعاشها . همس لها من ناهد
توجسه :

— وما سمعت !؟

خففت صوتها كمن ييوح بسر بين جمع :

— صوت السيارات في أول الحارة ..

جاء الحارة بمخيلته : لم يتأخر أو يكرّ عن الساعة المتفق عليها !
ولا دخل الدار من بابها ! ورغم البرد والمطر الغزير ، دار أكثر من دورتين
حوالي الحارة ! أبواب الجيران ونوافذهم كانت مغلقة بالعمّ والصمت .
وتذكر أن البستان المجاور ، عدا بضعة كلاب ، كان خالياً ! وانه عمل
بتنبهات الشباب ، قالوا له : « قد تكون الدار مراقبة من ناحية الباب ..
ولذا التّف من الخلف ، صوب شجرة التوت ، واصعد » . وكذا فعل ! لا
بل حتى حين صعد الشجرة ووصل إلى منتصفها ، تلفت نحو أسفلها
وحواليها ، بعيداً عنها ، فلم يلمح أحداً ! ولحظة قفز إلى أرض الدار
وخطبت قدماه ، ظل مقرصاً لاطئاً يسترق السمع لأية نامة أو نائحة تنمّ
عن تنبّه الجيران لصعوده أو نزوله . وخطر له أن ينقف نافذة الغرفة
بحصاة ، لكنه ما فعل ، لأن الباب كان ، كما الإشارة ، موارباً . وحين
تسلل إلى الغرفة لم يوقظ أولاده . صحيح أن الشوق ذبح لحظتها ، وحرقة
أنفاسهم المتجمعة في الغرفة .. لكنه كبس على جرحه ملحاً ولم يفعل
خوفاً من تهلمهم وهرجهم وصياحهم فنبهوا الجيران . اكتفى بأن غمر
رؤوسهم الصغيرة الغافية بقبلات خفيفة ، واحتضنهم بعينيه للدقائق، ثم
ضمّ زوجته بصمت. أخرس وغابا معاً ... فكيف عرفوا بوجوده !؟ كيف
عرفوا ! كيف !!

قال يبعد هاجساً ساوره مد فكر بلقائها :

— متأكدة ؟!

— طبعاً . هكذا سمعت . مثل انغلاق أبواب سيارات في أول

الحارة !

— هس س س ..

ضغط على أصابع يدها ، وحاول نزع اللحاف عنه ، فأحس
بشلل في ساقيه . كأنهما غائبتان ملتصقتان بالدفء الحنون السائح
حول جسديهما . ذائبتان في حرارة الدنيا التي آوت إلى فراشهما .
موغلتان في طراوة جسدها اللامذ بجسده وكأنها المرة الأولى ...

قال يُوجّل اللحظة التي لا بد منها :

— ربما كان صوت المطر في الخارج .. خرخرة المزاريب ؟

— حسان .. قلبي يقول لي : هم . ثم اسمع .. اسمع الآن ...

أدارت وجهها نحو الباب ، وراح ينصت كأنما أنفاسه ، فسمع ما
يشبه لغطاً بعيداً .. وقع خطوات غامضة غير منتظمة . نطّ من فراشه ،
ونطت معه . همس لها :

— لا تضيئي النور . اجثي معي عن الثياب ، ولا تفتحي ان

دقوا ..

وراح يفتّش ، باللمس المتوتر المتخبط ، عن ثيابه ، وكذا راحت
أفكاره تتخبط في رأسه : « يعني وما كان لزوم مجيبي أصلاً !! الجماعة
طلعت روحهم وما لقطوني ! هكذا .. ببساطة جئت إليهم بأقدامي ؟!
كيف غلطت هذه الغلطة ؟! كيف لم أفكر بأنهم ... يا سيدي ! لا
غلطة ولا كفرة ! وما الصحيح ؟! أن أبقى بعيداً عنها ، متخفياً مثل
الفران !! عام ونصف .. طقّ قلبي ! نشفت روحي ! متخف عنهم ..
فهنا ، وعنها أيضاً ! عن أولادي ! » وتقلقت أفكاره مع تقلقل حركاته
المتلاحقة وهو يلبس ثيابه « ثم .. لم افترضنا فوراً أنهم جاؤوا ؟! ربما

ليسوا هم ! قد تكون مجرد قرقرعات ظننا أنها » وفكر أن يسألها
ليصدق رغبته :

— ميساء ..

— نعم ؟

ثم عدل عن سؤاله . فقد بدا له سخيلاً . لا طعم له . أين تنتظر
حتى يدخلوا البيت ليصدق !! قال يحسم تردده :

— ميساء .. اجثني معي .. أين الكوفية ؟

وراحا يبحشان .. « ومن أجل لقاء تتركهم يلقطونك !؟ لعن الله
فكرتي من أساسها . يا أخي لولا البرد والوحشة والغربة ما كنت ...
الواحد منا في عزّ الشتاء يشتهي بيته . يكفر بالشوارع الخالية والوحل
والتنقل وآخر الليل . يشتاق لرائحة أولاده . يحن لزعرناهم .. لالتفافهم
حوله وتدثرهم به . فهمت أنني مطلوب ومتخف وما لا أدري ... وفهمت
أنه ... »

قطعت أفكاره وهي تساعده في لف الكوفية على رأسه :

— حسان ... عجل ... يمكن أن ...

شدّ الكوفية على رأسه ، واتجه ، على رؤوس أصابعه ، نحو باب
الغرفة . فتح الباب ، فرأى وإبلاً من العتمة والمطر والسكون يملاً الدار .
ليس من صوت سوى تكتكات حبات المطر على صفائح التنك والخشب
وأرض الدار .. تكتكات متتالية ، متسارعة ، قلقلة مثل دقات قلبه . أخذ
يدها وهرولاً نحو أغصان شجرة التوت المدلاة . سحبها من العتمة وضمها
إلى صدره .

— ميساء .. لا توقظي الأولاد ، ولا تخبرهم بمجيئي . إن دقوا

الباب فلا تفتحي . دعي الجيران يفتحون وتظاهري بالنوم . أنا ذاهب .
قولي للشباب أن الموعد الرئيسي قد ألغي .. أراهم في الموعد الاحتياط ثم لا

تنسي ...

وسكت حين أحسُّ أن الوقت سيغدو . أمسك بغصن غليظ مدلى ، وكاد يدفع جسده إلى الشجرة حين نادته بصوت غائر مثنى ، كأنه آت من آخر الدنيا :

— حساان ...

التفت إليها، فما باحت أو قالت شيئاً. فردت يديها، ضمته، وشدّت. شدّته حتى أحست أنها تكسّر صدرها وتسكنه بين أضلاعه. تفتح قلبها، تدفعه اليه، ثم تغلق خلفه وتخفيه عن الدنيا كلها. تخفيه عن الصقيع الذي أحست، فجأة أنه يأكل عظامها. وعن الليل المخيف الذي يسحُّ حولها الآن. عن حفيف الصمت المفزع. عن أصابع الشجرة التي تمتد لتسرقه منها. شدّت، تخفيه في عينها اللتين اشتاقتا. عن عمّ الدنيا ووحشتها، وعن الانتظارات، واللهفة، والترقب، والغياب... وعن الشتاء الطويل الذي لمّا ينته من حياتهما.

ويغته، مثلما ضمته من شوقها، دفعته من خوفها، إذ تنهى إليها وقع خطى قريبة من باب الدار. دفعته واستدارت تهرول. وفي اللحظة التي غاب فيها بين الأغصان نحو الحارة الخلفية، كانت قد دلفت إلى الغرفة. أغلقت الباب بخذر، ثم اندست في الفراش، والتحفت.. فأحست بوحدة تأكل جسدها، مثلما كان التوجس المتحفز يفعل بقلبها المنصت □

شباط / ١٩٨٩

_____ ماذا قلت يا أبي؟

ارتيمت منكباً على صدره ، وقربت أذني من فمه لأفهم ما يقول ...
غير أن صوته غار ثانية في التأوهات ، تحت وطء الغيبوبة وجسّ أيدي
الطبيين وتدافعها العجول المنظم فوق جسده الممدد على السرير المعدني
داخل غرفة الاسعافات في بداية رواق المستشفى .

— قل يا أبي ... ماذا تريد ؟ .. قل ..

ندهت .. فربتت الممرضة على كتفي لأبتعد عن جسده :

— لا تهتم .. هذا أنين المرض .

وراحت تحفف زيداً رغا على شفثيه ..

تراجعت غير مصدق ما قالته . فمنذ يومين ، وكنت قرب فراشه
في البيت ، ناداني بأصابعه الواهنة وقال لي بصوت منك : « ابق إلى
جانبي .. لي حديث معك .. إذا مدّ الله في عمري » يومها رجوته : « قلّه
الآن يا أبي .. ها أنا أسمعك ؟ » غالب تبعه بابتسامة كايبة عارفة : « لا
تحف .. مرضت كثيراً .. ورأيت كثيراً .. لكنني لم أمت .. عمر الشقي
بقي » وحينها جفلت . قبّلته ، ودعوت له بطول العمر .. ثم صرت ظلّه
الواجس .

وقبل قليل ، في سيارة الاسعاف ، همهم شيئاً ، كأنه قال ، لكن
لهوجتي وضجيج المحرك والزمرور المتقطع .. بددت كلماته !
أوماً لي طيب ، وانتحي بي جانباً :
— هل كان أبوك يشرب كثيراً ؟

— بلى كان يشرب .

همس الطبيب الذي سألني في أذن طيب لم يسأل . همست
لنفسى : وأحلى شارب في الدنيا . على أطراف البركة ، في حوش الدار ،
أول المساء ، كان يوزع صحنون البطاطا المقلية والبيزر والجبن والمخلل
والزيتون .. فأتدافع واخوتي ، متسابقين ، إلى ساقيه يفوز من يحتل ركبته ،
فيحرد من يحرد ويشمت من يشمت ... لكن ذراعيه المشرعتين على الرحب
كانتا تجمعنا وتنسينا خلافاتنا ، فيقهقه وهو يقول لأمي : « لك يا مرا ...
الدنيا بلا شراب خراب » ونسبق أُمى إلى جوابها المعتاد الذي حفظناه :
« هي خرابانة خرابانة بشراب وبلا شراب » وتغمز الدار ، والدنيا ،
ضحكات رقاقة مجلجلة ...

نقر الطبيب على كتفي لأمسك يد أبي . رفعتها ، فأحسست
بثقلها الغريب . راح يلفّ حول زنده قطعة لقياس الضغط ، فيما يتابع
الطبيب الآخر الاصغاء لنبضات قلبه ، وترجّ الممرضة زجاجات صغيرة
ملونة . مسحت ظاهر كفه ، فانسبلت الشعيرات السوداء الكثيفة حول
أصابعه . قبّلتها ، وأدّرت الكف الضخمة وغمرت بها وجهي ، فأحسست
بأصابعه كأنها تتحرك . غرت بين الأصابع أكثر . الأصابع التي كان
يمسح بها دموعي أو يشدني إلى صدره .. يحيط بها رأسي ، حين أسير
قربه ، فأشعر كأن الله مدّ يده ليخصني بها دون غيري .. أو كان ، وقت
ألجّ عليه ، يكاسرني بها ، فأكسره ، بعد جهد وطول عناء ، وأطير فرحاً
نشوان إلى أُمى أخبرها بانتصاري على أقوى بطل في العالم ...

أزاحني الطبيب مضطرباً ، ثم امتص بالحقنة قليلاً من الدم :

— مصاب بالسكري ؟

— لا !

— فقر الدم ؟

ضغط باصبعيه على خديه ، ففغر فمه . دلق سائلين أبيض وأحمر ، والتفت إلى الممرضة التي كانت تلطم على باطن ساعد أبي بخناً عن وريد ، وسألها بعينيه .. فأومأت أن لا فائدة . أخذ منها ابرة السيروم وراح يلطم ، بتسارع ، على عنقه محاولاً إيلاج الابرة ... دون جدوى . ترك العنق واقترب من الطبيب الآخر .

دنوت من أبي ، ولوّحت بكفي أمام عينيه .. فتغيرت تعبيرات وجهه . التصقت بصدرة ، فهمهم .. ثم راح يومأىء ويفأىء .. يخطف شهيقاً ثم ينبر بأحرف متقطعة تعلو وتغور ثم تختفي . صحت :

— أبي .. ماذا تريد ؟ أخبرني ؟ أنا هنا .. أبي ..

غير أن السكنية عاودت عينيه المفتوحتين على فراغ ، وتراخى وجهه . وجهه الذي كان يشّ ، كل ليلة ، قبل أن أغفو مع إخوتي . غابت لألآت ملامحه التي كانت تطلّنا صباح كل عطلة حين يوقظنا متلهفاً ، وتوارى تحت الأعطية غاضبين ، فيصرّ ، رغم احتجاجات أمي ، إلى أن تتحلّق حول أطباق الفول والحمص والنعناع والبصل اليابس والمخلل ... فنأكل بنهم ، مقلدين شهيته ، ثم «نشرق» الشاي الساخن ونحن موزعين على جسمه ، نصغي لحكاياته التي لا تنتهي ، ولا نملّها ، عن الحرب التي أخذت بنصره والهجرات والطيور الغريبة وأيام الجوع والخوف وليالي التشرد وعن الأمراض التي كادت تسرقه منّا وعن الـ

نبّهت الممرضة الطبيب إلى أن الضغط بدأ ينخفض ، فسارع الطبيب إلى الحقنة ، شدّني : «أمله إلى جنبه» سحب منامته ، غرز حقنة في يتيه ، ثم أولوج ميزان الحرارة : «خلّ يدك هكذا» واستدار . الية أبي !! كأن جبلاً شاهقاً مهيباً راح يتقوّض فيّ ويتضعع ! أمام عينيّ هتك الطبيب ، بومضة ، سرّ الأسرار ، فانكشف لي المخيف عن رعب راعب !

خَمَّنت أن أبي سيستدير لينهرني أو يقفل حاجبيه ويعض على شفتيه زاجراً .. لكنه ما فعل ! سحب الطبيب الميزان : «أعده» . وسأل زميله عن نبضات القلب ، فرفع حاجبيه وهز رأسه . عاين ابرة السيروم فوجدها منزقة خارج الجلد . دنا من المريضة وهمس ، فخرجت مسرعة ، فيما راح يحاول غرز البرة في العضد ثم العنق ثم العضد الآخر . طلب مني أن أرفع كتفيه ، فأحطتهما ورفعت . كانا ثقيلين ... لكنهما عريضان وحنونان كما في تلك الأيام .. حين أطلت على الدنيا من فوقهما ورأيت العالم لأول مرة .. حين كان يخطفني إليهما فأصرخ ، لبرهه ، فزعاً مذعوراً ، تم انفلتت بالضحك والنطنطة فيما ساقاي المسدلتان تطوحان على صدره حيناً وتثبتان داخل كتفيه الضخمتين الممتلئتين حيناً آخر ، فأتمائيل وأتطوح دون أن أحشى انزلاقاً .. أنطنط من دهشتي كيف كبرت ، فجأة ، حتى صرت أطول من الناس جميعاً ، فأصفق وأغني ثم أغمر في لحظة نشوة وجه أبي حتى أحجب عينيه ، فيضحك ضحكته المجلجلة إياها وهو يقول : «طيب ... دلني على الطريق الآن إذن يا باشا !!» .

مثل هبة ريح مباغتة ، دخلت المريضة وناولت الطبيب مشروطاً .
نبر بحزم من تراءى له الموت :
— أمسكي كتفيه .. وأنت ساعدها .
والتفت إلى الطبيب الآخر .
— ناولني السيروم ، وألحظ لي نبضات قلبه .
وبلمحة شق بالمشروط أسفل ساقه ، فانفلق اللحم وانفلق قلبي .
التفت إلى وجه أبي ، كان خالياً من أي ألم ، ممسوحاً بكآبة غريبة ، ساكناً وسط عينين فاغرتين لا ترفان ولا تتحركان ، تراجع معظم سوادهما للخلف ، فيما احتل البياض المصفرّ الفتححين الكايتين .

فجأة ، لحظة حرر الطبيب وريداً وعرز فيه ابرة السيروم ، اختلج جسد أبي كله ، وراح يرفع يده بتناقل وشده وكأنه يدفع الكون عن صدره ، ثم تحركت حدقاته كأنه يبحث عني . انبطحت على صدره :
— أبي ؟!

تلعلم بصوة بطيء ، زاحف ، ممطوط :

— نو ... ما .. م م .. عوو .. قا || ...

ثم هوت بعدها يده وتطوحت ، فيما امتلأث أذني بزبد فمه ، مزوجاً بأصوات مبهمة وحشرجات تندافع عبر زفير قصير مقذوف وشهيق طويل يتقطع ويغيب .

صحت من رعب وهفة :

— أبي ... ماذا قلت ..؟ ماذا تريد ..؟ أشر لي .. أنا هنا .

لكزني الطبيب :

— اتركه الآن .. ابتعد .. حين يشفى تسأله .

دفعته دون وعي ، وقد ملأني فزع من إضاعة فرصة لن تعود :

— اتركني أنت يا رجل .. أريد أن أفهم ماذا قال ..

وحاولت إحاطة وجه أبي .. غير أن الطبيب شدني بقوة ، ورفع

من كتفيه ، فيما كان الطبيب الآخر يحمله من ساقيه ، والمرضة ترفع

كيس السيروم عالياً . مُدّد على العربة المتحركة وانطلقوا به نحو المصعد .

ركضت خلفهم أقاتل شبحاً أحسست أنه غدر أبي هذه المرة .

ركضت ، خائفاً ، كما في طفولتي حين كان يسهو عني في الطريق ، وأزعق

فيستدير ، مدهوشاً ، ثم يغمرني وهو يطبطب على ظهري ويتابع خطوه

السريع . زعقت .. فما استدار ، ولا تَلَفّت ، ولا طبطب على ظهري

الذي انهدّ وانكسر !

في الطابق الثالث أدخلوه إلى غرفة مليئة بالمرضى . وضع الطبيب

جهاز مراقبة نبضات القلب على صدره ، ثم راح يضغط ، بكفيه . التفت إليّ لاهثاً :

— انزل مثل البرق واجلب من المستودع اسطوانة أوكسجين .
استدرت ، ثم توقفت :

— ولكن أرجوك .. انتبه إلى ما يقوله ..
وطرت من جنوني . لأول مرة أحسّ أن حياة أبي بين يدي .
طرت أهبط درجات ودرجات .. أهبط وأنزلق وأتمثر وأرتطم وألوب .
رجوت أمين المستودع ، فدفع الاسطوانة الطويلة أمامه نحو المصعد .
انطلقت أصعد الدرجات كما هبطت . انعطفت إلى الممر الأخير ، وكدت
أواصل اندفاعي حين أمسكت يد الطبيب يدي ، وأحاطت ذراعه
كتفي :

— العمر لك .

طفحت كل أيام طفولتي من فمي :

— أي عمر !! ماذا تقول؟!

وسرقت يدي وكتفي وفزعت إلى الغرفة ...

مسجى ، مجللاً بالبياض ، كانوا يرفعونه إلى العربة . صرخت :
ماذا قال؟! نزعت الشرشف وتترت عصبية تحيط رأسه وذقنه :
ستخنقوه ! غمرت وجهه : أبي .. قل لي .. هذه المرة سأسمعك ...

بكل ساعات انتظاري واحتراق شوقي .. غمرته . غمرته كما كنت
أفعل دوماً عند أوبته وأنا صغير ، ورحت أصرخ في أذنيه :

— أبي .. أنا قريك فقل .. أسمعك .. ماذا تريد ..؟

دفعوا العربة ، فتدحرجت خلفها وقد شجّ صمته الأبدي عمري .

بعقت من قهر :

— أبي .. ماذا قلت يا أبي ؟ أبي ي ي ي ي

تشرين الأول / ١٩٨٨

_____ أصد قاسيون.. وأنادي

لحظة انطلقت ضحكها مترققة عالية .. بوغت ، كعادته ،
وتساءل في سرّه عما عساه يفورّ هذا الفم الجميل بالضحك كلما ألمح لها
بجبه ؟

فهو جرّب مرات الاملاح إلى حبه ومصارحتها بمشاعره .. لكنه في
كل مرة كان يباغت بضحكتها هذي التي لم تعن له رفضاً ولا قبولاً ، بل
شيئاً آخر يحار في تفسيره أو فهمه ويزيد من إرباكه ، فيطوي مشاعره في
الحال باختراع أي حديث أو سؤال أو تشاغل كأنما هي زلة لسان في
لحظة انفعال .

وقد نوى هذه المرة أيضاً ، وهما يغذان السير في الطريق ، طي
مشاعره والتكتم عما يختلج في قلبه ويعذبه كتماه طوال عام مضى من
ارتباطهما معاً ونشاطهما المشترك .. نوى ذلك بعد أن عجز في الماضي
عن اقتناص الفرصة المناسبة للبوخ بجبه ، أو التقاط الوقت الملائم
للحديث عن مشاعر ومواجذ تبدو له ، أو هكذا اعتادت الإيحاء إليه ،
شخصية وذاتية بل وسخيفة إزاء المهام الجليلة الموضوعية الهامة التي
يحملان أعباءها !!

وتكررت حبياته في أكثر من لقاء أحس فيه أن الفرصة الذهبية قد
حلّت لحظة تتأبط ذراعه ليلاً في مكان موحش ، أو تضم يديه وتشدّ
عليهما بجمرة أو تندفع عفوياً إلى معانقته من جراء نجاحهما في توزيع بيان
أو عدد من الجريدة أو عقد اجتماع لآخرين ... وبهمّ في انتهاز الفرصة

والإلماح إلى حبه فتحيطه تلك الضحكة المباغثة ، المهمة ، التي تطلقها ثم تلحقها بصمت مؤثب أو أي كلام مشاغل .
وكما تعود في المرات الماضية تجرُّع خيباته وإحباطاته ، هيئاً نفسه هذه المرة أيضاً لانتكاسة أخرى وهو ينتظر ، مبهوتاً ، توقف ضحكتها الغريبة الغامضة ...

لكن المفاجأة جاءت على غير ما توقع وتعود !
فما كادت تتوقف عن الضحك حتى علقت ساخرة :
— يقطع عقلك يا علي .. أهذا وقت الغرام ؟!
رداً مغتنماً الفرصة :

— أليس للحب عندك وقت ؟
تلاشت ضحكتها وقالت ببعض الجد :
— بلي .. ولتوزيع الجريدة وقت أيضاً !
ثم أغذت السير ، وأغذت خلفها ..
ولدقائق ، راح يفكر كيف حيرته هذه المخلوقة !

صحيح أنها لم تصارحه مرة بشكل مكشوف جلي بحبها له .. لكنه كان يستشعر ميلاً نحوه ، راحة ما ، دفناً شفيفاً تحيطه به ، خصوصية ما تخصه بها وحده غير مواضيع مهماتها ونشاطهما ، كأن تشكو له أهلها أو كآبة انتابها أو تعرض مشكلة غاية في الخصوصية عانت منها أو حتى بعض أحلامها الضائعة .. فيروح عنها ويحاول أن يبحث عن حلول ، بل ويبالغ ، أحياناً كثيرة ، في الاهتمام والتدقيق كأنها مشكلة الشرق الأوسط في محاولة للنفاز إلى قلبها والتعبير عن حبه في حين تكفي هي بقلب شفتها « لا تهتم ... مسألة بسيطة » ثم تغير الموضوع !
لكن الفرصة هي الفرصة . إن لم يغتنمها فاتت ، وهيات أن تعود .

ولذا وجد نفسه يُسرب أصابعه في كفها فتنتابه رعشة قلق حاول أن

يواريها بالقول :

— ما بك تركضين كأنهم يلاحقوننا ؟

— وأنت ما بك تمشي وكأننا في نزهة !

قالتها باحتجاج خفيف أحس منه ببعض رضاها . لَعَبَ أصابعه
كما لو كان يرمي سهمه الأخير .. فلم تجفل ، بل أطبقت كفها بخنو
أذاب قلبه . وقيل أن يهَمَّ بالكلام كانا قد وصلا إلى البيت .

— والآن يا أفندي .. اترك يدي لأفتح الباب !

وما أن دخلا حتى التفتت إليه :

— لا تنس يا علي إننا ملاحقون دائماً ..

ردَّ غامزاً :

— وهاربون دائماً .. !

ألقت جسدها على المقعد وسألته باهتمام بالغ :

— قل لي .. أنهيت البارحة توزيع البيان ؟

— اطمنني وزعته .. عدا مجموعة المنطقة الثالثة .. قدَّرت أنها

ملغومة . أغمضت عينها ممتعضة :

— مذ عرفتك هكذا .. قدَّرت .. خَمَّنت .. ظننت .. متى

ستقلع عن أوهامك وتخوفاتك يا باشا ؟

شعر بوخز فقطَّب قائلاً :

— إذا كنت تحكين بجد فأنت غلطانة ! أولاً لولا حذري لاعتقلت

من زمن .. ثم ... ثم أي مهمة كُلفت بها وجبت دونها؟! معظم

الشباب وعرفتكم بهم .. المطبعة وعملت بها .. الجريدة بذلت كل جهدي

في توزيعها .. الاجتماعات ...

حاولت ابتلاع استيائه :

— على مهلك .. على مهلك ! ستقدِّم لي تاريخك؟! أعرفك عن

ظهر قلب . عام ونحن معاً يا شيخ . قصدت تشجيعك على مهمة اليوم .. أليس للمزاح عندك وقت ؟

تراخى انفعاله ..

— بلى .. إذا كان للحب عندك وقت أيضاً !

نهضت عن المقعد وقالت بغنج ملحوظ :

— رجعنا يا علي ؟!

شجّعها غنجها فباح لها بحبه :

— زينب .. ما ذهبت حتى أرجع . إسمعيني مرة . أنا نفسي ترددت كثيراً قبل أن أقول . خفت أن تفهميني خطأ . صدقيني خفت من مشاعري قبل أن أخاف رأيك . أثبت نفسي مرات ومرات .. لكن هذا الملعون في صدري ظل ، ببساطة ، يحبك .. وراح يحكي ويتدفق كما لو كانت الفرصة الأخيرة لمحكوم بإعدام . حكى لها كيف نمت مشاعره وكبحها . وكما تعني له وما يشعر به من قوة بسبب وجودها إلى جانبه . وإذ راح يحكي كان يحاذر بعد كل كلمة حب ، ويتحفظ بعد كل بوح . يتلأأ ويندفع ويتعثر بكلماته ... حتى رفعت حاجبيها وترقرقت في ضحكتها المعتادة . لحظتها أوماً قائلاً :

— هذه ! لا تحيرني سوى ضحكتك هذه ! ما الذي

يضحكك ؟!

أجابت وهي تبدد ضحكتها :

— أن تتحدث مثل العشاق المراهقين .

ردّ باستياء وحزن :

— مثل من تريد أن أتحدث ؟ مثل لاعبي كرة القدم المخضرمين

مثلاً !!

تكلّفت جداً بدا له مفضوحاً تماماً

— كفى يا علي .. ليس وقته الآن

ناور تكلفها :

— ومتى وقته إذن ؟

شفت عينها الشهلأوان عن وميض غامرٍ ساحرٍ ، ثم ضمّت كفيه

وقالت برقة عذبة :

— لا تخف . وحده سيخبرك ذلك الملعون في صدرك .

أين كان قلبه الذي يحس به الآن ينبض نبضاً حتى يصل

مسمعيه ، ويرقص مجنوناً يكاد يجنّته معه ؟ لمّ بدت الآن أقرب إليه من

دمه ، وبدت الدنيا أجمل من حلم ؟ قال يحلم أكثر :

— يعني

— نعم يعني .. ولكن أما اتبهينا بعد ؟ جئنا نتغازل أم نتدبر أمر

المهمة !

— وألف مهمة . ألف مهمة يا زينب . قولي مجنون ... ولكنني

متحرق الآن لأن أصعد قاسيون وأنادي : أحبك يا زينب .

شدّته من يده برفق :

— لا تصعد ولا تنزل . إجلس الآن وافتح أذنيك . لم يبق وقت .

أما أنك مجنون فعلاً ...

★ ★ ★

على ظهر رزمة أعداد الجريدة أخذت ترسم الخطة على ورقة

صغيرة . عيّنت الشارع الذي ستقف فيه السيارة ذات اللوحة الغريبة .

لونها . أشكال الموجودين داخلها . عددهم ... ثم حدّدت مكان

وقوفهما .

نقرت برأس القلم على ساعة يدها .

— أعطني انتباهك . بعد نصف ساعة سنكون هناك . أما كلمة السر المتبادلة ، كما اتفقت معهم ، فهي على الشكل التالي : تقول للراكب في الخلف : « هنا مستودع السيارات » فيجيبك : « لا .. هنا سوق الخضار » ، فتعطيه الرزمة ثم تتفق معه على موعد لقائكما القادم . أما أنا فسأظل على مسافة منكما .
— ولم ؟

— حتى أتمكن ، لو حدث طارئ ما ، من إخبار الشباب فوراً .
تمام ؟

— تمام تمام .

وقفت تنظر إلى الساعة . اقترب منها وضمَّ وجهها إلى صدره

— رائع لقاء اليوم . أليس كذلك ؟

أغمضت جفنيها بشدة ثم فتحتها . قالت :

— حاذر . سأحمل الرزمة في حقيبتي حتى المفرق . هناك أدلك

على السيارة وتنطلق . هل أتبهك أيضاً ؟

أراد أن يناكفها وهو يهم بالخروج :

— أراك تنبهين وتحذرين على غير عادتك !!

ابتسمت وهي تضبّ الرزمة

— بسيطة . اغفر لي هذه المرة .

وخرجاً ...

لم يشعر مرة بالتححرر من المخاوف كما في هذه المهمة . كان مليئاً بالشجاعة وطافحاً بالقوة ومفعماً بالحب . استدارت تناوله الرزمة ، فلمح خطفاً ، اصفراراً موحشاً يسحّ من وجهها . كاد يسألها ، فسبقته بشفتين جافتين :

— أترى السيارة الرمادية الواقفة قرب العمود في نهاية الشارع ؟

تلك هي .

حضن الرزمة تحت إبطه ، وخطا .. فأوقفته .

— تمهل لأتأكد ...

حدقت ملياً .. ثم أومأت برأسها .

— هيا . هم أنفسهم .

وانطلق ..

قطع الشارع ، وحاذى العمود ، ثم أبطأ ليتأكد من لوحة السيارة ، لونها ، الموجودين فيها . التفت إلى زينب .. كانت واقفة تراقبه « الشيطانة .. ماهرة في الوصف » ثم دنا من الشخص الجالس في الخلف :

— هنا مستودع السيارات ؟

مثل قنابل موقوتة .. انفتحت الأبواب الأربعة . ارتطم وجهه وارتد إلى الخلف . فزعوا نحوه . استدار هارياً فأمسكوا به من قميصه . تترّ نفسه والتفّ فالتفّ أحدهم لملاقته . زاغ عنه راكضاً فتعثّر وسقط . نهض يحاول ثانية فلمح زينب لمحاً . بأقل من طرفة عين رأى ضحككتها الوحشية الغامضة تندلق من وجهها . انبطح أرضاً وتدحرج ، فأحس بركلة عنيفة على رأسه .

حين رفعوه وأدخلوه السيارة ، خطف نظرة إلى زينب فرآها ترفع لهم إبهامها مثل شاهدة قبر ، ثم تستدير .. فيما راحت الدنيا تغيم في عينيه وهو يسقط من أعالي قاسيون ويتدحرج على صخور تنهشه نهشاً ..

كانون الأول / ١٩٨٧

صباح ذلك الأحد _____

حدث الأمر بالصدفة المحضة ، تماماً كما يشدك الفضول لتختلس
نظرة أو تسترق السمع أو تجرب ولو مرة ... فتجد نفسك أمام السرّ
مباشرة ، في البرهة التي ينزلق فيها ، يخرج من أحشاء غموضه إلى النور ،
فينكشف عن آخره تماماً ، دون حجب ولا هالات ولا أوهام ..
والصدفة حدثت بعد أن تركنا بيتنا القديم ، وسكنّا في آخر قرب
الكنيسة ..

يومها لم تحمل الأرض أمني . إتهجت وهللت لأننا صرنا قرب الله
وتحت رحمته ورعايته ، ولم نعد — كما من قبل — نسكن آخر الدنيا ،
مهملين ، مقطوعين ، لا تصل رحمته إلينا إلا بالكاد ! ولذا ، كانت مع
كل شمعة تشعلها للعدراء مريم تعيد القول بأنها لن تخاف بعد الآن ، لأن
الملائكة الحراس الذين يحمون بيت الله ، يحمون السكان المجاورين بالمعية ،
ونحن أولهم بالطبع !

وكما لم تنقطع عن زيارة الكنيسة والصلاة فيها صباح كل أحد ، كذا
دأبت على اصطحابي معها .. بل كانت تصرّ على أن أرافقها كي يسكن
يسوع قلبي الطاهر ، كما تقول .
وقلبي يومذاك ، كان غضاً ، فارغاً ، متعطشاً ، يبحث عما يرتوي
منه .

ومع توالي الآحاد ، ونقطة خلف نقطة ، راح يمتلئ بالأسرار الكثيرة
بحيث لم تعد الكنيسة كما تسميها أمني ، بيت الله فحسب ... بل مغارة

الأسرار أيضاً ، كما بثُّ أراها . سرّ القربان المقدّس ، وسرّ المعمودية ، وسرّ الزيت المقدس ، وسرّ المناولة أسرار متزاحمة تحيط بيّ ولا أفهمها . كلها تتلفع بروائح وألوان وطراوات تدهشني دائماً ، وتخيفني أحياناً . وإلى ذلك ، كان هناك جسد يسوع العاري مصلوباً وقد كلّل الشوك رأسه وأدماه .. القديسون يطلّون من أطر خشبية عتيقة على الجدران وهم يحدّقون بنا . زنين الأجراس الصغيرة لطرد الشياطين . فوحان البخور الرمادي الكثيف ذات الشذى الغريب . رداءات الكهنة الفمضاضة ، الطويلة المزركشة ، تلتمع عليها خيوط مذهبة مفضضة . رأس التنين في نهاية العكاز الذهبي الذي يحمله المطران . تراتيل الجوقة تخفت وتصدح في فضاء الكنيسة . القبة الضخمة المرتفعة قامات فوق قامتي . الشموع المحتشدة ترقص لهيها . ثمّ الصمت . صمت المصلين الحثّير تقطّعه ، بين حين وحين ، إشارات خاطفة من الجبين إلى السرة نحو الكتفين . وجوه مطرقة وعيون مسبلة . تمتمات ، وغمغمات ، وتهدات .. وبرغم هذا ، فسّر الأسرار لم يكن في ذلك كله .

كان في الكأس .

في تلك الكأس التي ألحها منتصبه وسط المائدة داخل الهيكل ، وكيف كان الكاهن يتمم قليلاً ، ثمّ ينحني مقبلاً شفتي الكأس . يتراجع خطوة . يشمر ثوبه . يسجد لثوان ، وينهض . بعدها يجلب الكأس بوشاح خمري ، تبرز من طرفه ملعقة فضية طويلة تنتهي بصليب صغير . يضمّ راحتيه إلى الكأس ، يرفعها بخشوع ، ثمّ يلتفت نحونا فتلتمع قاعدتها الذهبية المستديرة ، مرتلاً : « خذوا كلوا . هذا هو جسدي الذي يكسر من أجلكم لغفرة الخطايا ... واشربوا منه كلكم .. هذا هو دمي الذي يهرق عنكم وعن كثيرين لغفرة الخطايا » فتردد الجوقة : « آمين » ويردد قلبي وجله وحيرته .

وأكد لا أصدّق كيف يستجيب المصلون للحال ، فيتجمّعون ثمّ
يصطفون أمام الكاهن لتناول اللحم والدم التي في الكأس !
والأغرب ، أن أمي كانت تفعل ذلك أيضاً !!
تتركني وحدي ، وتهرع لتصطف مع المصلين . فأرقبها ، خائفاً من
وحدتي وجرأتها ، إلى أن تعود إليّ ، محنية الظهر ، ضامّة كفيها إلى
صدرها ، تغمغم بما لا أفهمه !
وأرغب في سؤالها .. لكنني لا أجرؤ . أكتفي بالتحديق في شفثها
علّي الملح أثراً ... غير أنني لا أرى سوى لمعة خفيفة تشبه لمعان قاعدة
الكأس الذهبية ، فأكتم خوفاً ، وأكتم كتماناً بانتظار أن يسكن يسوع
قلبي ، كما وعدتني أمي .
وحدث أن سألتها مرّة عمّا في الكأس .. غير أن جوابها زاد من
حيرتي ووجلّي ، وأكّد قلقي الصموت إذ قالت : « دم يسوع يا جورج .
دم يسوع ولحمه الذي فدانا به ليغفر الله لنا ذنوبنا وخطايانا ، فنحن
كنّا ... » وراحت تحكي عن الأشرار وأبينا آدم وأمنا حواء وما لا
أذكره . سوى أنها كانت تعيد القول وتؤكد أن ما في داخل الكأس هو
لحم يسوع ودمه ، وهو ما «تناوله» نحن الخطاة .
وكم تمنيت أن أسألها كيف جمعوا دم يسوع ؟ وكيف قطعوا
جسده ، وهل بينها عظامه ؟ ثمّ كيف تركهم يفعلون ؟ أما بكى وصرخ
واستنجد بأمه ؟ وكيف .. ولماذا .. لكنني كنت أخشى أن أكفر ، وأن
تسمعني الملائكة الواقفة على كنفّي ، وتذهب إلى يسوع فتخبره ،
فيغضب مني ولا يرضى أن يسكن قلبي .
وما من مرّة دعنتني لأشترك معها في المناولة ، إلا وكنت أرفض
بعناد ، أو أتخاذل ، أو أزوغ عن ناظرها لحظة المناولة . وبقيت ممتنعاً ،
زائفاً هكذا ، حتى صباح ذلك الأحد الذي لا أنساه ..

يومها ، كعادتي ، ذهبت مع أمي إلى الكنيسة ، وما أن استدار الكاهن بالكأس نحونا ، حتى نظرت أمي إليّ كأنها تدعوني ، ومضت دون أن تقول شيئاً .. فوجدتني أمضي خلفها .

ما الذي جرّني خلفها ؟ أكان الخوف من أن أبقى وحيداً ؟ أم غيرتي من الصبية ، موحدتي اللباس ، الذين قادتهم معلمتهم ؟ أم تراه الفضول الذي راح ينخر قلبي مثل السوس مذ أكدت لي أمي أن ما في الكأس لحم يسوع ودمه ؟ لا أدري !

لحقت أمي ووقفت خلفها ، وطوال انتظاري كنت أسعى لرؤية ما في الكأس . تناولت على رؤوس أصابعي وتطلعت ... كانت الكأس أعلى من قامتي . حدّقت في الملعقة وهي تخرج من الكأس .. فما لحت شيئاً ، لأن الشفاه كانت تندفع في الأطباق على الملعقة واختطاف السرّ منها . عندها ، فقدت شجاعتي الطارئة . فتلملت أنوي الفرار من صف الواقفين ، التفتت أمي ، صدفة ، وضمتّ كفتي ، وقدمتني عنها . لحظتها ، ما عدت أقوى على الرفض أو التردد . صرت أمام الكأس . في مواجهة السرّ الرهيب . وجهاً لوجه . لا مناص .

انحنى الكاهن ليपाल فمي ، فتعريشت عيناي على حافة الكأس ، وأطلت : سائل أحمر ، غامق تطفو عليه قطع صغيرة مختلفة الأشكال . غمس الكاهن الملعقة ، ملأها ، وقربها من فمي بعد أن وضع طرف الوشاح تحت ذقني . شعرت بالغثيان ، فأغمضت عينيّ وحوّفي ، مستسلماً لراحتي أمي الدافئتين تحت إبطي ...

حتى لنفسي ، خفت أن أبوح !
خفت أن أكفر لو قلت : بلي ! ان تسمعني الملائكة ، أو تضريني أمي ، أو يزعل يسوع منّي !
لكته بلي ... وإلى أن تقوم القيامة ، سأظل أذكر الطعم . الطعم

نفسه ! والرائحة ذاتها ! طعم النبيذ الأحمر الذي اعتدنا شرابه ليلة رأس السنة . رائحته التي تفوح حين يصبّ أبي في الكؤوس ، ويرمي ليرتين فضيتين مغسولتين ، فنفرح ونشرع في سباق الشرب لنفوز . ثم طعم الخبز المبوّث في شاي الصباح تشبه طعم القطع الصغيرة المبوّثة في الكأس ، تشبها إلى حد هائل !

عدت خلف أمي وأنا أتلمظ شفّتي . همستُ :

— أمي ...

— نعم يا جورج ؟

شردت عنها متطلّماً في وجوه المصلين : « هل يحسون بالطعم الذي أحسّ به ؟ هل يخافون هم أيضاً يسوع لو قالوا ؟ » ثمّ شددت ثوب أمي ثانية :

— أمي ...

— نعم .. نعم .. ما بك ؟

وأخذتني الكنيسة . عيون القديسين لم تكن ترنو شاخصة إلينا كما رأيتها ! وجوههم مطرقة ، كابية ، وألوانها باهتة ، جرداء ! رائحة البخور بدت خانقة ، منقّرة ! الجوقة ترتّل بتراخ ممل ! عكاز المطران تشبه قضبان الحديدية قرب دارنا ! والصولجان المصدّف المذهب على رأسه لا يقطر دماً مثل اكليل الشوك على رأس يسوع !

— أمي ...

— هه .. ما بك ..؟ صرعتني ؟

سجبتني من يدي ، وهمنا بالخروج مع المصلين ، فيما كان خادم الكنيسة يطفئ الشموع ويرتبها في طبق خشبي الأطول فالأقصر فالأقصر . وآخر يعدّ النقود الكثيرة المتجمّعة . والكاهن داخل الهيكل ، يخلع ثوبه الفضفاض فيظهر بنطاله البني المهترى .

خرجنا . وفي الطريق سألتها :

— أمي ... شو في بالكاس ؟

رفعت حاجبها مستغربة :

— يا جورج كم مرة قلت لك ؟ دم يسوع يا حبيبي .. دمه

وجسده الذي

وإذ طفقت تشرح وتؤكد .. وجدنتني ، وأنا أتلمظ شفتي ، أتطلع

إليها مشدوهاً ، فيما مشاعر مختلطة ، غريبة كل الغرابة ، لا عهد لي بها ،

وأفكار كبيرة وثقيلة على رأسي الصغير تتابني كطفح وأحار كيف

أخفيها ..

آب / ١٩٨٩

الصفحات

لم يكن سعاله ، الذي تناهى إليّ من الزنانات الداخلية عبر البهو المعتم الضيق ، ليلكز اهتمامي بأكثر مما يفعله وقع انصفاق باب أو سقوط وعاء رزان على أرض صلبة ... لولا أن ما تلا بدّل معنى الحادثة العابرة ، ثم أكد دلالتها !

فبعيد السعال الذي تدفق من جوف البهو ، حاداً متتابعاً .. انتابنتي — صدقة — نوبات سعال متتابعة ، أقل حدة ، ما كادت تهدأ حتى لحقتها نحنحتان : «إحم .. إحم» بدتا لي مفتعلتين ، ليس فيهما أثر لسعال حقيقي كأنهما تصدران عن فم لا من جوف أو حلق .. فجزيت — تبعاً — نحنحة قصيرة منغمة بتساؤل : «إحم ؟» ، وإذ بي أتلقى نحنحة مماثلة ، دون تنغيم ، مفعمة بتأكيد وقصد وكأنها تردّ تحية لتحية !

«يهتف لي إذن ! ولكن .. من يكون ؟ وماذا يريد من نحنحاته ؟ يعرفني !؟ هل هي إشارة منه لم أفهم معناها؟» سللت مسماراً ، كنت خلعتة من باب ززانتني الخشبي ، ورحت أتطلع من دائرة الضوء الصغيرة ، السجان غائب . أعدت المسمار ، وأطلقت نحنحة لأتأكد أكثر ، فتنحح يؤكد ظني ! تنححت كرة ، ففعل .. وأعدت ، فأعاد !!

فجأة ، كبرت الزنانة . كأن النحنحات صدّعت جدرانها ، فانسلت حزم ضوء إلى هذا المعتم الصامت . فرحت بالضوء ، وخفت أن

يغيب فتمطيت صائناً .. فصات كأنه يتمطي !
وأمسكنا اللعبة ...

هو من طرفها الذي يتناهى إليّ غائراً من تلك الزنانات القابعة في
جوف البهو ، وأنا من الطرف الآخر في ززائتي التي تواجه مدخل البهو .
وعبر المسافة المجهولة الظلماء بين ززائتين رحنا نشدّ ، من وقت
لآخر ، جبل النحنحات . أرقب السجان وأنحّ ، فيطمئن وينحّ ..
ونواصل لعبتنا التي لوتت هذا القاتم من الصمت . كسرت رقابة أيام
ترحف وتكرّر مثل حبات السبحة . أنست وحدتي فلم أعد منفرداً ، وربما
فعلت ذلك معه أيضاً .

ومضت أيام لمو كثيرة أذابت فيها وحدته وحدتي ، وصارت روحه
لصيقة روحي . وما كان لعبة لمجرد كسر الصمت المفروض الخائق ، صار
شاغلاً حلواً . متعة انتظمت بصورة مدهشة في أبجدية قليلة أشاعت قرباً
ودفقاً حنوناً وتواصلأ يروي القلب الذي جففته الجدران الكتيمة والفراغ
الكتوم .

ولم أكن أدرك أي بوح عميق مفعم يختفي خلف الأصوات حتى
عشت تلك الأيام من النحنحات مع صديقي المجهول . فمن نحنحاته
صرت أحس بهوموم وبهجاته وأحزانه . من تهدجها أو رخاوتها .. من
اندفاعها أو تردها .. من صدورها محزوزة مجروحة أو قوية مشبعة .. من
الآه والآخ التي يطلقها آخر النهار .. بات قريباً من قلبي .

وبسبب من الحظر المشدد على أي كلمة أو نداء من المعتقلين ،
لذت حيلتنا وطابت ! فرحنا نوع أصواتنا ونبحث عن مفردات جديدة
نضيفها إلى «لغتنا» المكتشفة .

أشركنا التناؤب الطليق الصائت للتعبير عن ملل أو الاعلان عن
رغبة في النوم .. وافتعلنا العطاس القوي لايقاظ الآخر .. حتى أننا أدخلنا

المزاح أيضاً إلى لغتنا الخاصة الجديدة !

كنا ، بعد كل توزيع للطعام ، نتسابق في إطلاق نضحتين مطوطتين مغناجيتين إجماء للآخر بأن نصييه ألدّ وأوفر ! وغالباً ما كان يسبقني في النحّ ، فأغتاظ وأبادله نضحتين مثيلتين لا للذّة في وجبتي أو وفرة فيها .. بل لأردّ له الصاع وأغيظه أيضاً !

ولأيام قليلة ، قبل أن يحدث ما حدث ، كنت أحاول أن أراه . أن أوسّع الثقب ، وأتفق معه بنحنة مشيرة على لحظة خروجه ، وأراه ، فلم يبق من صداقتنا ما تتوقّ إليه إلا العيون . لأننا بتنا معاً ، أشبه بكيفيين تجمعهما زلزلة واحدة دون أن يدريا . وبتنا إن تأخر أحدنا أو تلكأ ، نحّ الآخر عجولاً .. وإن سها ، وقلما يسهو ، تُنبّه نحنة عاتبة !

هل سهوت يوماً عن النحّ بشارة الأمان ؟! هل تأخرت في المراقبة وطمأنته ، حتى بادأني إلى إطلاق نضحات عاتبة غاضبة ؟!

لم أُنح حين سمعت نضحاته . عاجلت إلى سحب المسمار والتطلع من الثقب ، ففوجئت بالسجّان منحنيّاً يتلصص ، وقد توارى معظمه خلف باب البهو . إرتدت فرعاً ! ظلت نضحات صديقي تعلو وتتلون وتتغير . عاودت التطلع .. فلمحته يخطو منحنيّاً متلصصاً . دفعت حنجرتي لتنحّ ، فأحسست بها خوراً ! حاولت وحاولت ... لكن الدوران العجول لمفتاح السجّان سبقني في كتم نضحات صديقي . ثم .. كما يُشَقُّ ثوب على دفعات ، دوت ارتطامات اللحم على اللحم ! أرتت ، وتلاطمت ، وتتابعت ... ثم ران ما يشبه الذنب أو الخديعة على عيني ! أب السجّان . ومع كل خطوة كان يؤوب بها وينأى .. كنت أنزلق في وهدة ألم حزين واجف . بعدها ، ران صمت . صمت أم أسمع مثله يوماً مذ دخلت الزلزلة . كرزت على أسناني وأنا أنهض من وجيفي الأليم نحو الثقب : دائرة ضوء فارغة . بلعت ريقى ، وتنحنحت ..

ارتطمت النحنحات بالصمت وارتدت ! أطلقت نحثين منادياً . ثم
أعدت .. لم يجيني ! كررت راجياً .. فأحسست بنحنحاتي تنهاوى واهنة
ضعيفة . عاودت منادياً ، ثم متسائلاً ، ثم مازحاً كما في أوقات الطعام ..
غير أن صوتي بدا أشبه بنباح جرو وليد لفحة الجوع والزمهرير .. جرو
يصوت في بهو معتم ضيق فلا يُسمع غير رجع صداه الخوار المفرد !
وكا تُطبق قوقعة على عتمها ، انسحبت حزم الضوء من زناتي ،
وأطبقت جدرانها على جسدي البارد ، البارد .

تموز / ١٩٨٨

الصقيع



— جد ؟!

سألته بصوت مقضوم، وتطلعت الى عينيه فرأتهما عكرتين ..
عاودت ، لتبتدد خوفها الذي شبَّ فيها :

— غسان .. لا تمزح . جد ما تقول ؟!

تنهد ، ثم قال مستسلماً :

— بلى .. هذه المرة لا امزح

جالت في ملامح وجهه ، تبحث عن نأمة أو خلجة تكذب ما
سمعته .. فلم تجد غير ابتسامة مرة على شفثيه . حاول ضم كفها بكفيه
لتهدئة روعها :

— سلوى .. سأحكى لك القصة كلها ..

ردت يدها كأنها مست جمرأ :

— وهناك قصة تقوفا أيضاً ؟!

لف كتفها .. فتبرمت وهي تحدق إلى عينيه حائرة قلقة .. غير أنه

شدّها اليه ، وتابعا السير معاً ..

كانت الطريق منسابة في العتم ، وملفعة ببرد قارس . محفوفة بشجيرات
مسيجة كأنها اصطففت لتشهد اليوم الأخير في حياتهما . ولم يكن قمر ولا
نجوم . سيارات تعبر بين فينة وأخرى ، تضيئهما لحظة .. ثم ينغمسان في
العتمة ثانية .

— سلوى اسمعيني .. وبعدها قولني ما شئت ..

سَلتَ كتفها ، فأحست بصقيع مداهم في موضع يده . سألته بصوت
أبيح :

— ولِمَ لم تقل لي ؟ أقصد لِمَ لم تخبرني قبل اليوم !
عاود ضم كتفها إلى صدره ، فسكنت لأوبة الدفاء ، ومشت

معه ..

— حتى لانعيش شهوراً من الوداع . لا أنت تحيين الوداع ولا
أنا .. فلم أخبرك ؟ أعني .. لِمَ أخبرك قبل أيام أو شهور من سفري ؟
حتى نندب حظنا وعمرنا ونموت ألف ميتة ونلعن الدنيا.

التفت اليه :

— طيب فهمت .. ولكن ماذا يعني أن تسافر !!
— لايعني شيئاً . يعني الى متى ؟! بصراحة ، كما قلت مرة ، الى متى
نظل نلتقي في الشوارع والحدائق مثل اللصوص ؟ فكرتُ قليلاً وكثيراً ..
قلبت الدنيا واعدت بناءها .. فلم أصل الى نتيجة ! حالنا ستظل على
ماهي عليه . من ثلاث سنوات والى اليوم ونحن نلوب دون فائدة ، دخلي
ودخلك لايكفيان خروفين .. فكيف سنعيش معاً !! بل فكري ما ..

قاطعته :

— لكنني لأحدثك عن العيش

— ياستي أنا الذي أحدثك عنه ..!

قالها بعصبية ، فبدأ لنفسه غير نفسه .. وبدأ لها كأنه غير غسان .
ورمته معاتبة ، ففضّ بصره وهما ينعطفان الى طريق مضاءة . تطلع اليها
فلمح شحوباً وحرناً في وجهها أطبقاً على صدره . بابتسامة حاولت اخفاء
حزنها .. غير أنها مكّنت فيه احساساً مريراً بالذنب جعله يعدل عن
مواصلة كلامه . أوقفها بلمسة حانية من يده ثم استدار نحوها وباح لها
بصوت مكسور :

— ما الذي سأفعله ياسلوى ؟ وكيف سنستطيع العيش ومواجهه الأيام التي تكرر من لعنة الى لعنة ! قولي لي ...؟... لا تحرقيني أكثر !
— ياغسان .. وما الذي ستفعله هناك ؟! هل تظن انهم سيقدمون لك جنات عدن ؟ يفتحون لك أبواب بلادهم لتحقيق أحلامك ؟ يأخذونك بالأحضان ؟ ثم هناك العيش ليس أفضل من ...
— بلى .. أفضل من أن أموت هنا وكما يحلو لهم !!

قالت بنبرة ساخرة :

— وكل هذه الأفكار الحلوة جاءتك بعد أن نويت السفر ؟
نخزته سخريتها ، فأمسك بكتفها وراح يشير الى الأبنية العالية المحيطة بالشارع حولهما :

— لأفكار حلوة ولا بشعة ! ببساطة ، أترين الى كل هذه .. ما الذي تملكه منها ؟! ها ! قولي ! اتركيني من التنظير كرمى لربك ! كثير علينا غرفتان وحاجات بسيطة نعيش بها ! كثير علينا أن يكون
— وأنا ...؟

كأنه سها عن شيء وذكرته به . اضطرب قلبه وانكمش جسده كما لو أنها ، في عز الصقيع ، غطّسته في حوض من الثلج .
— أنتِ ؟

التفت اليها وأحاط كتفها :

— أنت تعرفين أنك الدنيا كلها بالنسبة لي ... السندويشات . والأفلام الحزينة . وتين البعل . وطريق الربوة . وبيوت القصب . والبوظة . والقبلات المسروقة . العوجة . وحصى النافذة والانتظارات . والضحكات ، الضحكات . وحتى المشاجرات وأيام الزعل . أنت ياسلوى ؟

أحاطت خصره ، ووكأت رأسها الى كتفه فأحسست به قوياً مفعماً

بالدفاء . وأحست أيضاً من التصاقه بها وأصابه المشدودة على يدها
ولحظات الصمت التي دخلا فيها للتو .. أن عزمه على السفر قد ضعف
أو تراجع ، فأضافت لتؤكد لنفسها :

— وكلها تبيعها ببطاقة سفر ؟

من أصابعه التي تراخت عرفت الجواب قبل أن يقول :

— روحي هي التي زهقت ياسلوى . أنا لم أبيع ولم أشتري . هم .
هم حاصرونا . وحياتك لأنظر ولا أتفلسف . حاصروا الناس ليلتقوا
لقاءات أخيرة . يعني كيف أقول ! البلد صارت .. صارت مثل جهنم
طيب .. ولم المكابرة ؟ كم طلبوا منا آجار البيت في آخر المعمورة ؟! أبو
حسن الدلال ماذا قال لنا ؟! أم يحيى .. تذكرني .. كم مرة وعدتنا ؟! أما
ذهبنا للطبالة ؟ وعين ترما ؟ وكنا ..

— أعرف .. أعرف ولكن ..

لا .. لحظة . كنت معي حين سألنا عن نخت الحديد ، كم
طلبوا ؟! الطنجرة والصحون و الملاعق ؟ خزانة الصباح ؟! كراسي
الخشب ! هل أذكرك ؟! أنت قولي ، كم ضحكت يومها حين جلسنا
نحسبها ؟ قلت : والله لا بد أن أتزوج أربعة رجال فوق راتبي حتى أستطيع
العيش في بيت ! أليس كذلك ! أهلك تعساء وأهلي أكثر تعاسة ..
يعني ...

تبسّمت ، فأنجلي شحوب وجهها ولعت عينها . ضمها الى
صدره وقبّل عنقها وكاد ، حين نثرت جسمها :

— مجنون ..؟! نحن في الشارع !

أوقفته تحت عمود مصباح أصفر ، فغمرتها غلالة من لون
شاحب . واجهته بجسدها كله ، ثم أحاطت كتفيه وحدقت في عينيه :
— غسان .. قل لي ، أتمرح ؟

أغمض عينيه ، فساورتها فرحة صغيرة . لكنه كان يشعر أن الأرض
تغور تحت قدميه .. تموج وتتجوف وتدور . أسند ظهره الى العمود ، فغالبا
قلق جديد . انكمش صدره وارتمت ركبته ، ثم راح ينزلق حتى وصل
الأرض ، قرفصت أمامه ومسحت شعره ، ثم همست من خوف :
— غسان ..

مد يده الى جيبه ...

لو أنه أخرج عقرباً أو أفعى ، لما فزعت كما لحظة رأيت بطاقة
السفر . أنهضته ونهضت . لبرهة ، كانت تظنه يمزح . تخمنت أنه في نوبة
من نوبات كآباته وحزنه . طفرة وجع وضيق .. حالة من حالات جنونه
التي اعتادت عليها وأحبتة بسببها .
— غسان ...؟! .

ندهت تهزه من كتفيه ، فبكى . كأن عينيه كانت تنتظران هزة
واحدة . بكى ثم راح ينشج . انخطف قلبها واكتسى وجهها لون الليمون .
ندهت من وجع وجميع .

— معقول؟! العمر أقصر ياغسان! وأنا؟! نسيت! اتركني أنا
الخبز المعروك في الصباح! والعلبة وقهوة النوفرة التي تحبها! ماذا أقول!
ياإلهي كم أنت مجنون! صدقني أنه . طيب .. أصدقاؤنا! الشباب!
والدنيا! من كان يضرب المثل بأجد! ألسنت أنت! هو أكبر شاهد ..
اسأله! اسأله ماحدث معه هناك! عجيب منذ عام قلت لي .. أعني ،
إذا سافرت أنت من ..؟! الا اذا .. على كل ، ما الفائدة الآن ما الفائدة
سافر . سافر كما ..

لم تبتك . صوتها وحده كان يغور ، ويطفو . يتمدد ويختنق .
ينسحب من دهشة ويعلو من تساؤل . وكان هو قد كسره الصمت .
خطفه بعيداً . وبدا الشارع مغتالاً بالليل والصقيع . ينساح في الوحشة

والسكون والوجل .

من آخر شجرة اتكأ عليها ، وحتى باب بيتها ، ظلا صامتتين .
كأنهما طفلان ضائعان . تشده من خوفها ويشدها من وجعه .
متلاصقين عادة كما لو أن موتاً يلطأ عند باب البيت . وعند باب البيت
أقلت يده ، وانسحبت .

بغته ، عندما أخرجت المفتاح ، نذة بصوت جافل كمن تذكر
أمراً .

— سلوى ...

نهدت اليه ..

وقفنا متلاصقين ساكنين كأنهما ينتظران . هو تختلج شفتاه من
رغبة تخبُّ فيه ويغالب البوح بها .. وهي تلتمع عيناها بوميض لهوف
دافق .

تشرين الثاني / ١٩٨٨

ساعة الظهيرة _____

أقرب إلى رشقة من ماء بارد .. تكون ساعة الظهيرة تلك ! فآن
تئين ، تتغلغل الحركة إلى الزنانات وتنتشر ، كما لو أن أحداً قد أُخلي
سبيله ، وتطلق من السجناء همهمات ونُحجات وتلمظات كأنها كانت
منذ الفجر متخفية تنتظر ، ويختلط بعضها مع بعض ، ليؤلف من
اختلاطه وفوضاه ضجيجاً عذباً ، شهياً ، بل ومنعشاً على الخصوص ...
منعشاً لأرواح كنت تخالها ، إلى حين من الضجيج ، إنها فارقت أجسادها
دون رجعة لشدة تجمُّع الصمت وتزاحمه !

وسوى ساعة الظهيرة تلك ، يبدو كل شيء لبدأً طوال اليوم .
سكوت معشَّق بالتخييلات الخرساء ، وأحلام تلتف على انكساراتها ،
وانفراد ليس ما يلهو به غير وحدته ... حتى تأزف الساعة .
وقد آنت الآن .

فما أن قرعت الطناجر والصحون والملاعق في المطبخ المجاور ...
حتى سال لعابي ، فاستويت أتلمظه وأنا أصغني إلى المعزوفة الشهية التي
يحدثها السجنانون في جلبتهم ظهيرة كل يوم ، فبيل توزيع الطعام على
زناناتنا أولاً بأول .

ولكي أحتال على جوعي — بانتظار انتهاء الأرقام الثانية التي تسبق
زناتني -- رحمت أتلهي ، على عادتي كل يوم ، بتسوية البطانيات وإزاحة
أطرافها لإفساح حيز أشكّل منه ما يشبه مائدة إسمنتية مستطيلة تقبع
أسفل الحائط ، ثم أبدأ بجمع الغبار ولمّ نتف الخيوط المتناثرة ... حتى إذا

ما انتهيت ولم يصل دوري ، ركعت متحفزاً ، على ركبة واحدة ، وسارحاً قليلاً في تخيل نوع الطعام لهذا اليوم ، فيما يلوك فمي مرارته وجفاف حلقي المتجمّع طوال نصف النهار ...

« ما غداء اليوم يا ترى ؟ برغل ؟ لا ... البارحة وزعوا برغلاً ولبناً . بلى . وأول البارحة كان الغداء رزاً وفاصولياء يابسة . وقبله ؟ هم م م م . قبله كان .. ماذا كان ؟ صحيح .. ماذا كان ؟ هه ، فطنت .. لا بد اليوم أن يكون »

اتهرني الصوت المثلوم :

— تسعة !

هببت واقفاً .. فصدم وجهي الرغيف المقدوف من كوة الباب نصف الدائرية ، ثم ارتطم بالجدار وسقط . تناولته أتفحص حظي من الخبز : « العمى .. عجيب خالص ! يعني لو كنت خبازاً لما كان نصيبي بهذا القدر من العجين » . قلبته أبحث عن طرف ناضج : « هه .. قفاه أفضل من وجهه » ركنت في الزاوية ، وأخذت أنتش ما نضج من أطراف الرغيف المدور المقبب كي لا أضع لحظة بعد بدء الأكل ، وتركت أذنيّ تلاحقان وقع خطوات السجنان الذاهبة الآيبة .

— تسعة ... !

فردت ساقِي ، اتكأت على الأرض ، ووقفت :

— أصابك الطرش يا كر ... ها ... امسك !

سللت الصحن المعدني وأنا أحاذر اندلاق رخوه وقد أحسست بجوعي يفيض إلى فمي . ركنته على المستطيل الاسمتي ، وجلست : « قرنيبط بعصير البندورة أيضاً !! من اخترع هذه الأكلة اللعينة ؟ ! » قرّبت وجهي .. فهفّت رائحة غريبة ، خانقة ، قطّعت أمعائي ! أشحت عن الصحن ، وسندت رأسي إلى الجدار ... فلاحقني الفوحان الكريه ، المنفر ، الوخاز ، مثل رائحة فساء أو بيض فاسد !

ملأت الرائحة جوَّ الزنزانة ، فاستسلمت لها عليّ أستطيع مقاومة
جوعي الأرعن .. لكنني ما استطعت . كان الجوع ينهشني ويفتت قواي .
أمسكت الملعقة ورحت أحاول استدراج شهيتي بتحريك السائل .. لكن
هبات البخار الجديدة أغلقت فمي حتى صار مثل مغارة انهارت حجارتها
في حين بقي جوعي يرغي ويلوب !
تركت الملعقة على طرف الصحن ، وأرجعت ظهري إلى الحائط ،

ثم أغمضت عينيّ ، وسرحت

أضاء البيت في ظلمة جفنيّ وكأنه يتواطأ مع شهيتي الهاربة :
« بخار الشاي الساخن ... أرض الدار المنفسحة .. رشفة خلف لقمة
زيت وزعتر .. خلف رشفة ورشفة .. لذع السخونة .. تكوّر حبات
الزيتون الأسود ولعانها وانزلاقها بين اصبعي .. اللبن المصفى والنعناع ..
كيف كنت أغضب لو تأخر الطعام قليلاً ، أو أنفر لو كان فاتراً .. أشمئز
من بيّاته يوماً ، وأستاء لو كان مالحاً أو قليل الملح .. وكيف كنت ... »
ثم ، مثل حلم خاطف ، رأيت أكواماً من الأرقعة المحمّرة
الطازجة ، تتوسطها أطباق ملوّنة ، فائرة باللذة والمتعة ، تعبق منها روائح
شهيّة ، متداخلة ، نفاذة .. سرعان ما تحوّلت إلى فمي ونهتنتي . فتحت
عينيّ ، فأحسست بلذّة حقيقية تملأ فمي !! لذّة ، مداهمة غامضة ، من
قطعة خبز يبدو أنني دفعتها ، شاردأ ، إلى فمي . دفعت قطعة أخرى ،
ورحت ألوّكها في غمرة تكتكات ارتطام الملاعق بالصحن في الزنزانة
المجاورة ، ارتطاماً متلاحقاً . متنافراً ، عجولاً ، ومقبلاً ... ففاضت
شهيتي !

ووجدتها فرصة . اقتربت من الصحن ، صالبت ساقيّ . أخذت
الملعقة ثم هممت بالأكل بعد أن أجهز الجوع عليّ . لحظتها ، عصفت
نداء السجّان فوق رأسي راعداً :

— تسعة بيك ... ! أما انتهينا بعد؟!
رفعت رأسي إلى الكوة ، مبقياً على الملعقة في قعر الصحن ،
فلمحت وجهه المكفهر وقد سدَّ الكوة تماماً :
— لحظة .. لحظة واحدة وأنتهي ..
فتح فماً غطى نصف الكوة :
— لحظة تأخذك ! قم ! هات الصحن .. قاعد بالغبطة .. ها ؟!
أفلت الملعقة ، ورفعت الصحن ببطء متردد ، ثم نهضت خلفه
أشيّعه ... في حين كان جوعي يتمدد على مساحة الزنزانة الضيقة ،
الضيقة ، بانتظار ساعة الظهر في اليوم التالي . □

شباط / ١٩٨٨

الهاجس

لأن النافذة الغربية لغرفة الأولاد تطل على موقف الباص ، فقد
التصقت بها لاتبرحها ، وكأن وقوفها هناك ، قرب النافذة ، سيحضر
زوجها من غيابه المفاجيء ويبرّد قلبها المحروق بنار الأنتظار !

دخل يحبى مثل هبة ريح يلهث قائلاً :

— أمي أمي ليس في بيت أبي عادل

سألته دون أن تلتفت إليه :

— وبيت حسين عبد الباري ؟

— سألتهم أيضاً ، قالوا لم يروه اليوم ...

عاودت ، وعيناها تجويان الشارع المكتظ بالضجيج والسيارات

والعربات والناس :

— وبيت عمك ؟

— أمي !! كم مرة سألتني وقلت لك أنني سألتهم؟! والله العظيم

لافي بيت عمتي ، ولا في بيت عمتي الثانية حمدة ولا في بيت عمي ...

كلهم سألتهم وقالوا أنهم لم يروه ... ألا تصدقين !؟.

— طيب ... طيب. والتفتت إليه : تعال. حضنت كتفه :

إسمع . أريدك ، مثل الطيارة ، أن تذهب الى بيت خالك وتفهم منه إن

كان قد ات..... ثم غيَّرت رأيا : لا ... إسمعي ... قل لخالك أمي

تريدك حالا . اترك كل شيء وتعال . قل له أمي على نار . فهمت ؟

عجّل ولا تتأخر . وحين سحب ابنها كتفه وانطلق ، صاحت خلفه : مثل

الطيارة يا يحيى . أنا بانتظارك .

وأرسلت عينها نحو الشارع ثانية ...

راحت تبحلق بالناس المارة . تحدّق بالسيارات . كلما توقفت سيارة قفز قلبها من النافذة ليتأكد من في السيارة ثم عاد مكسوراً خائباً . ومع كل باص يصل الموقف تمطّ عنقها وجذعها ، تمنع في الناقلين واحداً واحداً وحتى واحدة واحدة : «أين اختفى؟! أين يكون الآن؟ لِمَ كل هذا التأخير؟ ما الذي حدث له ياترى؟!». جرّت صباح اليوم الى ذاكرتها : «لم يقل لي أنه سيتأخر! أفقنا كعادتنا، شربنا القهوة، لبس ثيابه، وقبل أن يخرج... صحيح! تذكرت! قبل أن يخرج سألته. بلي سألته : هل ستتأخر اليوم ياأبا يحيى؟ ساعتها ضحك من قلبه : يأم يحيى ، ألا تتركين هذه العادة؟! والخزن بعد الدوام!! أعرف ياأبا يحيى بأنك لاتستطيع التغيب عن الخزن.. ولكن ليطمئن قلبي. ولحظتها نكّس رأسه وحدّجني بنظرة من تحت نظارته : اي يسلم لي قلبك ان شاء الله ! ثم ضحكنا كثيراً ، وعندما همّ بالخروج لحفته : إذن لاتنس ... سنأخذ الصغير الى الطبيب بعد أن تعود» .

توقفت سيارة لإجرة صفراء قرب الرصيف . أمعنت النظر في الشخص الجالس جانب السائق.. فغرّد قلبها. كادت تناديه.. غير أنها امتنعت في اللحظة الأخيرة حين تأكدت ، لحظة خروجه ، أنه ليس هو : «أين ذهب؟ ست ساعات! لو كان مسافراً لآنت عودته! إلا إذا كان...» .

وراحت تكلم نفسها . يغيب الشارع وماعليه أمام ناظرها ، لتتوالى صور ومشاهد وحوادث رأتها أو سمعت بها ، مُفزع بعضها ، ومدمى بعضها ، وغامض بعضها الآخر . والشكُّ يولد الشك . يفرّخ التوجسُ توجساتٍ صغيرة سرعان ماتمو وتكبر لتفرّخ بدورها وتملاً

رأسها !

فُرع الباب . فَرَّت الصور من رأسها ، وانخطفت لتفتحه .

— أخي ، لِمَ تأخرت ! تعال .

سحبته من يده نحو النافذة :

— ها . قل لي . هل عرفت أين هو ؟

— هَدَّيْ أعصابك . الغائب عذره معه .

— أي عذر ! ست ساعات ! المشكلة ليس من عاداته . لو كان مشغولا

لهتف لك . هل هتف ؟

— لا . أنا هتفت لمقر عمله ..

— وماذا قالوا ؟

— قالوا لي كلهم خرجوا ..

— والخزن ؟

— استغربوا واحتجوا على غيابه . ولأخفيك ، اتصلت بالمستشفيات ...

جمدت عيناها واضلاعها وانفاسها :

— هه ...؟!!

— قالوا ما عندهم هذا الاسم ..

قالت من رأسها :

— لم يبق غير الشرطة إذن !

زفر من ضيقه وحيرته :

— يا ستي فكرت وحاولت . ومن قال لك انني لم افعل ! أصلا

من البداية رجوت صاحبي النقيب ولم يقصِّر الرجل . إتصل واستفهم هنا

وهناك .. ولكن دون فائدة !

تسلل هاجس جديدة الى هواجسها فتحولت الى كتلة من فزع ..

— والمعنى !!!

لأنه كان يعرف أنها ستصل الى هذه النقطة في حوارهما، فقد سارع الى القول : «لا تستعجلي» ثم صمت يحك أذنيه أنفه ، يمسح على فمه وجبينه ، ويدلّك عينيه ليعطي نفسه فرصة جديدة . ولأنها صمتت هي الأخرى ، فقد ظل تساؤلها المलगوم مقيما بينهما لايعادر . غير أنها من عينيه أرادت أن تعرف ما يخفيه عنها أو يخمنه في نفسه . من توهان حدقتيه واختبائها خلف جفنيه الرامشين . من قلقه الذي يحاول زجره بالتشاغل عبر تطلعه من النافذة ، فسؤال آخر وتقع فريسة اليقين . قالت تقطّع سؤالها الأخير :

— يعني ، تظن ، أنهم ...

— لا !

نبر يرجعها من الطريق الوعر الذي يتجه اليه تفكيرها ، ويرجع نفسه أيضاً . فكلاهما الآن أمام دروب يجهلانا . اضااف بلهجة الواثق :

— ليس بالضرورة . كبري عقلك ! ألف عذر للغائب ! ألف سبب .

ويدا له أنها اطمأنت . تابع يقول :

— على كليل ، أبقى هنا . لن أتأخر . سأسأل عنه وأعود .

هل لأنه ترك سؤالها : «أين ستسأل عنه ؟» دون جواب ، أم لارتعاش أصابعه التي أحست بها على كتفها وانسحابه العجول ... عاودتها الهواجس كما تعاود الحمى المريض !

لاذت بالنافذة من جديد ، وغابت في الليل الذي حضر . ولليل مخاوفه التي لاثرى في النهار . وقد رأتها كلها . رأته يتشاجر ليحافظ على دوره في طابور الزيت ... ورأت أحدهم يدفع الناس المصطفين أمام القرن ليحتل الدور الأول ، فيتصدى له «ياأبا يحيى ... طوال عمرك تبحث عن المشاكل ! أنا يا أم يحيى ؟! أنا أبحث عن المشاكل أم هي التي تلاحقنا وتلدوس على كرامتنا ولقمة عيشنا ؟!!» ورأته مسجى أمام عجلات سيارة

هائجة ... ثم سمعته يزل بكلمة ،فلامته «يأم يحيى ... واحدنا ، أحيانا ، يكفر بحياته ... حرام ، من ضيقه ، لو حكى كلمة !!!» رآته ،وسمعته ، واحست به كما لو أنها ، معه ، في غيابه . ضاقت الدنيا في عينيها ، فلم يبق لها غير الرجاء . راحت تتوسل من فرط خوفها : «ليتة يكون في مقهى ... في ملهى بل ليتة يكون مع غيري حتى ... في أي مكان ... المهم ان يستطيع العودة وقت يشاء ...» .

— أمي..!!

جفلت من النداء . التفتت :

— مات أخي سعدي من البكاء !

فطنت لابنها الصغير . جذبت يحيى نحو النافذة :

— إبق هنا. إن جاء أبوك صح لي .

وفزعت الى الصغير . وجدته يبكي وقد سقط عن السرير . رفعته .

هزت له . ناغته . ربتت على ظهره ... لم يسكت . ظل يبكي ، كأن

بكاءه يسابق قلقها . امسكت به من زنديه ورجته ليسكت مرغماً ،

فازداد بكأؤه حتى صار زعيقاً . ركنته على السرير واعطته الرضاعة :

«يسرى ... انتبهى لأخيك» ، وعادت الى النافذة .

— يحيى . إذهب الى بيت خالك وأخبرني إن...

صرخ ابنها محتجاً :

— ياأمي انكسرت رجلاي !

وصرخت دون وعي :

— وأنا انحلت رجلاي وانكسر ظهري ! ماذا نفعل؟! ها ؟ رح

اسأل ان عاد خالك أو اتصل بهم.... هيا !

ذهب متذمراً متبرماً ! ونهدت الى النافذة : « العمى ! أية عيشة

هذه ! ركض وجوع وخوف ! لأمان ولاراحة !» سرت نظرة الى ابنها الذي

تحول زعيقه الى نواح : «هزّي له يايسرى» ، ورجعت لهواجسها :
«ياالهي ! مايجيرني أنه لايستطيع ترك عمله في المخزن ولاساعة ! كم مرة
رجوته أن يأخذ اذنأ من صاحب المخزن فلم يقبل ! كان يقول لي : مجنونة
ياعادة ! أنا لو تركت المخزن يوماً واحداً لتخلوا عني ! طبعاً يتخلون
عني ، لأن الف من يقبل ايديهم وجهأ وقفا ليعمل مكاني ، إي أنا أعمل
مثل الحمار عندهم وبالكد يرضون بي ؟ أما أنك غريبة فعلاً؟!» .
وحتى لاتقع ، وقد أحسست بالدوار ، اتكأت على حافة النافذة .
ساح صبرها وتلاشى . ارتجفت يداها ، وتقطعت انفاسها ، وانهارت قدرتها
على الانتظار كبيت من رمل !

وقبل أن يتجمّع بناؤها في عينيها ، وتتراحم سنوات حياتهما
الماضية ، وقبل أن يختفي الشارع والناس والسيارات والاشجار والأضواء
الشاحبة ، صوت سعاله الحلو الذي تحب ، وقع أقدماه القوية على
الدرج ، رائحته ، طعم كفيه الكبيرتين الخشنتين ، صدره المنفسح وقبلاته
التي تشبه شلالاً يترقق من رأسها الى أسفل قدميها... قبل أن يحدث
ذلك بلحظات قليلة ، فرملت سيارة أجرة صفراء مقابل النافذة . فُتِحَ
بابها ، وهبط أخوها بمفرده . صاحت بما تبقى فيها من عزم :

— أخي ... هل رأيت أبا يحيى ... هل رأيتة ؟!

لم ينتبه ، أو ربما انشغل بمراقبة الشارع وهو يقطعه ، فلم يرد.. ولم
تنتظر هي .. صاحت :

— أين هو.... ! هل رأيتة ؟! مابه ؟

ولم تنتظر أيضاً . دفعت النافذة ، وفزعت نحو باب البيت ، متعثرة
بالمكراسي ، ولهفتها ، والمدفأة ، وخوفها ، وسرير ابنتها الذي تحوّل نواحه الى
نشيج ، وهاجسها الأكبر ، ومحفظه يحيى المدرسية ، وأملها الأخير ، ومزلاج
الباب الذي لم تعد تعرف كيف تفتحه ...

***المرحاض**

• سَمَّيتِ القصة : المرحاض . ولكن حين نشرتها
أول مرة عنونت — رغباً عني — بـ «حزيناً ... قرب
النافذة» ثم عنونت في المرة الثانية — دون علمي
— بـ «الحطّة» ... تُرى ما به المرحاض؟! وِوِمْ
يشكو !!

أحكمتنا الخطة جيداً . ربطنا كل جوانبها بدقة . وضعنا الاحتمالات الممكنة وجهّزنا حلولاً لها . أفدنا — في خطتنا — من السجناء القدامى .. خبرتهم ودراباتهم بموقع السجن .. حركة الحراس وأوقات المناوبة .. المسافة بين المهاجع العلوية وأقرب شارع عام أو نقطة يُسمح للمارة بالتجول بها . أما مسألة عضو الاتصال ، وكيفية نقل الخطة إلى الخارج ، واليوم والساعة فقد ظلت طي كتمان قلة قليلة من الموثوقين خشية تسرب الخطة ، وفسادها بالتالي ..

وفي جوّ الفراغ الذي يستطيل على امتداد أربع وعشرين ساعة داخل حصار يجمع أربعين إلى ستين رجلاً في مهجع لا يزيد طوله عن اثني عشر متراً وعرضه عن ستة أمتار .. فإن مجرد التفكير في تأمين شفرة للحلاقة ، مثلاً ، أو مقص أو صنع موسى من يد مقلادة بعد طرقها وسنّها جيداً كان كافياً لأن يقيم دنيا سجناء المهجع ولا يقعد بها بحثاً عن المصادر ، طرائق الاتصال بها ، أوقات الطرق والضجيج وأوقات الصمت ، أمكنة الاخفاء .. الخ الأمر الذي جعل من الضروري مضاعفة الحرص والاهتمام بموضوع كموضوع خطتنا يمكن ، فيما إذا انكشف أمره مسبقاً لإدارة السجن ، أن تسحب نتائجه الوخيمة على كافة سجناء المهجع دون استثناء — المشارك في الخطة وغير المشارك — بل وعلى أهالي السجناء في الخارج أيضاً !

ولذا ، فقد بدأ التفكير بالخطة — أول ما بدأ — بين اثنين ، كنت أحدهما فيما كان ثانيهما عارف الدوماني الذي اعتدنا على مناداته بـ

«العم» لكبر سنة وطول إقامته وهدوء انفعالاته .
في ليلة — وكان فراشي جوار فراش العم عارف — ضرب على
فخذي ، فجفلت كمن يرشق بماء بارد وهو نائم . قال :
— «كفى يا رجل !.. اتخذتها عادة ! بماذا تشرد !؟»
يومها ابتسمت محاولاً للممة توازني . تابع بصوت رقيق :
— «أعرف . أعرف . لا تقل شيئاً . عام ونصف دون زيارة كافية
لجعل الكمبيوتر يشرد !»

أومأت مصادقاً ، ثم جهدت في إظهار تماسك ما ، فقلت :
— «طبعاً ليس إلى هذا الحد يا عم .. ولكنك تعرف أن ..» .
قاطعني ضاحكاً :

— «اي نعم سيدي . وأنا قلت ذلك بعد مضي عام على اعتقالي
دون زيارة . ولكن اسمعني الآن . مرّ على رأسي الكثير في السنوات العشر
الماضية . يعني بصريح العبارة لن تأتيك زيارة مهما طال توقيفك .
والحكاية طويلة كما ترى . يعني طالما واسمك في التحقيق عندهم تيسير عبد
الغني ، وهو غير اسمك الحقيقي ، فلن تتمكن لا زوجتك ولا أهلك من
زيارتك يوماً» .

أحسست كما لو أنه رشّ ملحاً على جرحي المفتوح ، فنزفت :
— « بالله عليك يا عارف دعني . لا ينقصني ! وما الجديد الذي
قلته !؟ يعني أفهم من كلامك أن أقدم طلباً للسادة أرجوهم فيه إعادة
التحقيق معي وأقول لهم : يا جماعة الخير لا تؤاخذوني ، كذبت
عليكم .. إسمي الحقيقي قصي الأسود وليس تيسير عبد الغني كما في الهوية
المزوّرة شرفوا الآن وافتحوا زيارتي !!؟» .
أغمض عينيه ورفع حاجبيه أن لا . قلت أستوضحه :
— «إذن .. تعني أن أهرب !..» .

ضحك ضحكة عريضة ثم قال بروية :
— «هذى أعصابك .. ولا تستعجل . لو يجدي الهرب لما رأيتني هنا» .

بعدها انخفض صوته وحزمت نبرته :
— «باختصار .. أفكر أن ندبر لك زيارة» .
— «زيارة !!» .

— «أي نعم . أعرف أن كل الأخبار التي تصلك عن أهلِكَ من هذا وذاك لا ترويك . فإن لم تر العين يا قضي لا يصدّق القلب أبداً» .
— «طيب .. ولكن كيف ؟ من فوق السطوح ؟!» .
— «بالضبط» .

وراح يعرض خطته . ثم ، معاً ، أخذنا نتفحص طرائقها واحتمالاتها ومخاطرها !



كان المرحاض حجر الأساس في الخطة !
في صدر المهجع ، أعلى الجدار المقابل للباب ، نافذتان علويتان كبيرتان مقطعتان بالقضبان ، هما المنفذان اليتيمان لتسلل زرقة السماء وحزم الضوء من الخارج . تبعد اليمنى منهما مسافة نصف قامة عن سطح مرحاض صغير بُني في الركن كيفما اتفق . ألواح بابة الخشبية مخلّعة ومتباعدة ، تبعث القلق في نفس المقعي فيه فلا تشعره بأي انفصال يذكر عن نزلاء المهجع ، ولا تتيح له فرصة للانفراد أو التخيل للذين كثيراً ما شعرنا بالحاجة إليهما !

وإلى أجل ، ظل سطح المرحاض العتبة الوحيدة للسجناء ، يطلّون من فوقها على الدنيا ، موقظين ما قد يكون غفا داخل نفوسهم في حُضن عتمة الجدران الأربعة .. إلى أن تنبّهت إدارة السجن فحدّرت ، وشدّدت ، وعاقبت مما أكره السجناء على التفكير في الاحتيال على

رغباتهم المندفعة بأن كَوَّمُوا الأغراض على سطح المرحاض بحيث صار فسحة مشاعاً لأوعية الغسيل والصناديق والحقائب والأحذية والأكياس وغيرها مما يتكَوَّم بعضه فوق بعض حتى ليكاد ، أحياناً ، يغلق الشبَّاك ويخنق الضوء !

على سطح المرحاض قامت خطة « العم » !
قال لي أنه ، في أول زيارة قادمة له ، سيقوم بتسريب عنواني الكامل إلى أهله ، وكذا موقع شبَّاك مهجعنا كما يبدو من الخارج ، ثم اليوم المحدد ، والنقطة الأقرب إلى موقع السجن من الشارع العام أما الساعة فقد فضِّل أن تكون الثامنة صباحاً آن انشغال الادارة بتوزيع المناوبة على الحراس من جهة وسطوع الشمس على شبايك المهاجع من جهة ثانية .
وأنهى شرح خطته بالقول :

— « من جهتك يا عريس الزين فما عليك سوى صعود سطح المرحاض ومقابلتهم » .

خفض صوته وهو يلعب عينيه :
— « هذا هو الحل الوحيد لمقابلة أهلك والاطمئنان عليهم .. فما قولك ؟ » .

سحرتني فكرته :
— « ما رأيي !! ولا أحلى .. ومتى موعد زيارتك القادمة ؟ » .
— « بعد غد » .

وقبل غد ، نظَّمتنا كل شيء . أبقيت الموضوع طي الكتمان ، كما أوصاني ، إلى أن تحين الساعة . ثم قابل أهله ورَّب معهم وأخبرني ، ولم يبق إلا أن تحين الساعة .



انتصف ليل صباح الزيارة ، ولم يأو الناس إلى جفنيّ !

عيناى ، مثل قنديلين ، تتأرجحان بين قضبان النافذة وسطح
المرحاض . تسرحان وسط الليل الصموت بين أجساد الملمت انكسارات
أحلامها ، وغفت . يتراصف بعضها إلى بعض في تراحم زحوم تحت
نافذتين كبيرتين تتطلع منهما زرقه السماء المسوّدة دون أن تبوح أو تشي .
« من سيأتي غداً ؟ » سألت الشبّاك الصامت « هل تأتي أُمى حقاً
أم تراها ماتت ؟ وحتى لو أتت .. كيف ستراني من هذا البعد المقطّع
بالقضبان ..؟ ماذا تراها قالت سعدة للصغير غسان ؟ لم يعد صغيراً .
كبر عاماً ونصف ، وكبرت سعدة ، وأنا أيضاً ! لا بد طار عقل سعدة
حين أخبروها بالزيارة .. وطيرت عقل الصغير معها ! » تتأهّم مباغت
« ولكن .. كيف سأفاهم معهم !؟ » .

لحظتها ، تمطى تناؤب عارف وهو يستوي على فراشه . التفت
مستغرباً :

— ألم تنم بعد ؟!

— عم .. سأسألك .. كيف يمكن أن ...

— يا شيخ ! سألتني ألف سؤال . ماذا تريد بعد ؟! ست الحسن
ستشرف وولي العهد والوالدة المحترمة كذلك وربما عائلتك كلها والجيران
وسبع حارات بعد حارتكم .. إرتحت الآن ؟!
قفّز عن العتبة الالاسميتية نحو المرحاض . سقسقت المياه ، ثم
خرج . عاد والتحف البطانيات .

همست أحاذر نزقه :

— قصدت أن أسألك كيف سأفاهم معهم ؟

جحظ وهو يبتسم تكلفاً :

— ولو ..! عبر مكبّر الصوت ..! بالعناق والأحضان ..! أهدا

سؤال يا قصي ؟! نم الآن ، والصبح رياح .. نم !

لم تنم تساؤلآتي . ظلت مستيقظة كجسدي الذي إستوى بين
الأجساد الغافية مثل شاهدة في مدفن كبير . قلت في نفسي : «أهذا
سؤال يا قصي حقاً !! وماذا يمكنك أن تفعل غير أن تشوّح لهم ؟!»
أغرنتني فكرة التشويح ، فتربعت للحال أرسم ، مبتهجاً ، إشارات الزيارة :
« في البداية لا بد طبعاً من أن أمدّ يديّ وأشوّح لهم يمينه ويسرة ليميزوا
شباكي .. بعدها أثني ساعدي وأشدّ قبضتي دالاً على أنني بخير .. ثم
أضمّ أصابعي إلى وجهي وأطلقها نحوهم ليبادلوني القبل .. أقاطع يديّ
وأباعدهما فارداً أصابعي لأطمئنهم إلى أنني لا أحتاج شيئاً ... أشير
بسببتي نحوهم ثم أقتل راحتي لأسألمهم عن أوضاعهم .. أفرد أصابعي
وأدفعها للأسفل مرات لأطمئن على الصغير . ترى هل تجلبه معها ؟ وإن
أتى .. هل سيناديني ؟ » .

إزرقّ سواد السماء المطل من الشباك وارتخى جفناي ، فتركت
عيناي الشباك وأنحدرتا على جدار المرحاض كيف كنت سأراهم لولا
المرحاض ! لا بد أن المهندس كان سجيناً يوماً !

دسّ النعاس جسدي تحت البطانية ، فيما ظلت عيناي ملتصقتين
بجدار المرحاض .. بالمسافة التي تفصل سطح المرحاض عن شفة الشباك
والتي لا تزيد عن نصف قامة .. نصف قامة تفصل البئر عن البيوت
والشوارع والأزدحام الجميل والقطط السائبة والضجيج الملونّ واللقاءات
والأسرة الدافئة وابريق الشاي الساخن وصفير القطارات والأرغفة الطازجة
والضحك بطلاقة والبكاء بطلاقة .. عن الانتظار .. والغيب .. وعن ...

* * *

تناوشنتني لهوجة الأيدي ، فأفقت لأرى المهجع يغلي ويفور !
— حلو والله يا قصي ..! اليوم زيارتك وأنت في سابع نومه !!
— قم يا رجل .. لو كنت مكانك لما غفت عيني !
دفعت إرهابي .. ونهضت .

مثل حبات «البوشار» رحت أتقافز هنا وهناك : الشفرة يا سعيد .. أين الشفرة ؟ أحمد ناولني البنطال والقميص من عندك .. هل لديك قليل من العطر يا معن ؟

غَطَّست رأسي في الماء ، ورحت ألوب مرتيكاً دون هدف .
رُتت ضحكة رأفت عبود في أذني :

— جنُّ صاحبكم يا جماعة ! حلاقة وعطر في زيارة من الشباك على بعد خمسمائة متر !!

ضحكت لضحكته فعَلَّق خالد :

— حسد أم ضيقة عين ؟

ورحنا نضحك في حين نبر عارف :

— ضيق وقت يا جماعة ..!

ثم انتحى بي جانباً :

— اسمعني يا قصي . المسألة ليست لعباً . حاذر وأنت أمام الشباك . أصحابك ينتظروننا على نكشة . إذا لقطوك فلا تعترف . كُلت نصيبك ولا تعترف . إذا اعترفت سيلحقنا البلاء جميعاً .

فاجأتني جديته ، فقلت مستغرياً :

— وكُل الله يا عم .. أنا ابن اليوم ؟!

واصل نبرته الحازمة :

— لا ابن اليوم ولا ابن البارحة . أنا أعرف بهم منك . ألف سين وجيم . إبق أمام الشباك ما شئت .. ولكن حاذر .. ثم لا تصعد حتى أخبرك . ادخل المرحاض الآن وحضّر نفسك .

تركتني ومضى نحو باب المهجع . الخنى يسترق نظرة من الكوة وأخرى إلى ساعة يده . فيما انشغل آخرون بإنزال الحقائق والأكياس والصناديق من سطح المرحاض .

دلقت إلى المرحاض ، فباعثني فرح غامر ! كانت نكهة الدخول

إلى المرحاض مختلفة هذه المرة . رغوت على ذقني ورحت أحلقها ، فطفأ وجه سعدة مع الرغوة . سمعت سخرياتها المغنّاة : « نعيماً يا فهيمي .. نعيماً .. يا شقاي » ثم وجهها حين أبرقعه بالصابون ، وهروبي ، واحتجاجاتها وركضها .. ثم ضحككاتنا .. ضحككاتنا وانشغالي عن الفرشاة والصابون وذقني نصف المحلوقة .

خلعت المنامة ولبست البنطال والقميص . صففت شعري فأحسست كأني أهمُّ بالخروج من السجن . عام ونصف عفنٌ جسدي داخل المنامة . كدت أنسى متعة البنطال والقميص على الجسد .
اقتحمت المرحاض الأصوات المتتابعة :

— اخرج يا قصي .. اخرج يا قصي .. عجل !
اندفعت من المرحاض ، فرفعتني الأيدي كما في المظاهرات والأصوات خلفي :

— سلّم يا قصي ..
— أخبرهم أن المقطوعين هنا كثيرون ..
— الزوّار لك والهدايا لنا ..

اقتربتُ من الشباك وانتحيت في زاويته .. فانكشفت الدنيا كلها في آن : الضياء الفضي تسبح فيه الشوارع الاسفلتية والحواف الترابية ، الدكاكين المشرعة على الرحب ، الأشجار المدلاة بغنج حنون ، نساء ، رجال ، وأطفال يتجهون كيفما شاؤوا ، يتبضعون أو يتسامرون أو يقفزون من رصيف إلى آخر من بقعة إلى أخرى طلقاء .. طلقاء مثل غزلان شاردة .

حدّقتُ أميز الناس ، فلمحت من بعيد سعدة تتأبط يد أمي وتجبر صغيراً باليد الأخرى . همى الشوق فيّ . ألصقت وجهي إلى القضبان ، فانفسحت الدنيا .

صاح صوت في المهجع :

— بانوا عليك ؟

أومأت بيدي أن بلى . وظل وجهي لصيق القضبان .
كانت البناءات تتوزع على نهاية سفح الجبل ، والطرق الاسفلتية
الضيقة تتلوى بينها وتنتهي جميعها إلى اسفلت عريض يحتمل مقدمته كشك
الحراسة ، بعدها يتابع صعوده متعرجاً إلى بوابة السجن الرئيسية .
وسط فسحة أقرب بنايتين ، تجمعت مسعدة إلى أمي وهي ترفع
غسان إلى صدرها ، ثم راحوا يتطلعون بنظرات زائفة .. فيما كنت أنقل
وجهي من فتحة قضبان إلى فتحة أخرى مثل حيوان جائع مقفص !
رفعوا أياد مترددة تائهة ، فمسنى هوس لهوف . دفعت يديّ من
خلل القضبان ألوح بهما وألحقتهما بصوتي الفائر ...

— سعدة .. سعدا .. سعدا!!!

تلهوجت الأصوات في المهجع :

— لا تصرخ يا قصي ..

— يلعن كفرك .. لا تنادي !

— اسحب يدك ..!

ثم سطا صراخ أجش مصدرور زاجر من خلف القضبان :

— انزل عن الشبّاك يا حيوان .. انزل يا كلب !

سحبت يديّ وصوتي ، فانهالت التحذيرات من المهجع :

— انزل يا قصي .. انزل .. انزل بسرعة !

قفزت إلى الأرض . دفعوني نحو المرحاض وأغلقتوا الباب . ثم عمّ

سكون مترقب .

فتح الصوت المصدرور الأَجَش باب المهجع ودخل راعداً ،

فسكنتُ مثل الموقى .

— يخرب بيتكم يا حيوانات ! من كان على الشبّاك ؟ ها ؟!

قولوا ...

صات الأَجَش وهو يقترب من المرحاض :
— العمى ! الواحد منكم لا يفهم بالكلام ! سياسيون اضرب
واطرح ولا تفهمون ! عيب . استحووا من أنفسكم . قلنا لكم ألف مرة ها
المضروب لا تصعدوا إليه ... (تالت لسعات خيزرانتة على جدار
المرحاض) .

— لا تصعدوا ! العمى .. يعني وماذا ترون من الشبّاك ؟
صاح أحدهم :

— نشم رائحة رينا .. أقل منها !؟
— شمك برص ! ألا تريدون أركيلة أيضاً !! أقسم بشرفي ...
بَعْدَ صوت الأَجَش المصدر فيما تدانى قلقي : « هل يذهبون ؟
ماذا يفعلون الآن ؟ هل رأوني ؟ أتراهم ميّزوا شبّاك المهجع ؟ » .
— ... نعم سأرئي به السجن كله ! جرّبوا مرة أخرى ..
تعاطم هاجسي : « لا بد أنهم ينتظرون . المهم أن يكونوا قد رأوا
يدي . لو رأوها لظلموا ينتظرون . إلا إذا .. إذا ظنوا أن الزيارة
اتتهت !! » .

عاود الأَجَش الازراب من المرحاض صائناً :
— لا .. ليس ص حيحاً ! لم تسقط الأغراض من تلقائها ..
خبطت قدمه على باب المرحاض واستقرت ، فكنمتُ صمتي :
— أظنون صعبة علينا ؟ لا وحياتكم ! مثل شربة الماء نوزعكم
على الزنانات إلى ما شاء الله ...

ضاعت جدران المرحاض حولي : « لا تذهبي يا سعدة .. قدّري
وضعي .. لحظات أخرى .. لو أستطيع لنفدت إليك من هذه
الفتحة .. » .

نزلت القدم عن باب المرحاض وتناهى الصوت :

— على كل الأحوال جربوا مرة أخرى ! أقسم بشرفي هذا آخر إنذار . شفتم ما صار مع المهجع الثالث والسادس كرمي للشباك ! طيب .. أنتم هنا وأنا هنا ..! » .

ندهتُ دون صوت : وأنا هنا يا صاحب الشرف . كُفَّ بلاءك عنا وانقلع . ماذا يفعلون الآن ؟ هل ذهبوا ؟ هل ينتظرون ؟

عميل صبري . أمسكت رتاج الباب يراحمي توقي . كُفَّ المصدر عن الصيات . ثم أرتُ مفاصل باب المهجع وسط سكون تام سوى ضجيج اندفاعي . أغلق الباب وفار المهجع ثانية :

— قصي ... قصي .. اخرج ... عجل .

مثل حصاة في سيل ، اندفعتُ . جرفتنى الأيادي وعلوت المرحاض . التصقت . تطلعت ...

في تلك اللحظة ، كانوا يستديرون منحدرين . رفرفت جفنيّ أمعنُ النظر . كانوا يستديرون منحدرين . انزلق قلبي وراح يدرج معهم : أمي تقوس ظهرها ، وغسان يتنازق حرداً فيما تحاول سعدة تهدئته . أمسكتُ به فنتر يده وراح يركض صاعداً الطريق في خط متعرج متواتر . نطّ قلبي . ركضتُ سعدة خلفه تناديه . رميتُ يديّ وصوتيّ وعينيّ من خلل قضبان الشباك :

— سعدة .. سعداا .. سعدااا ..

وفي لحظة ، هبت الأصوات في بهجع تستنكر وتحذر : « لا تصرخ يا قصي .. انزل يا مجنون .. انزل .. » وكانت سعدة قد أدركت جسد الصغير الحرد ، فجنّ شوقي وتدفق ، ورحت أصرخ وأنادي :

— سعدة .. سعداا .. سعدااا .

شباط / ١٩٨٨

مثل حجر في نهر _____

لم تدم الحادثة أكثر من خمس دقائق ، أو عشر دقائق على أطول تقدير.... غير أن وقوعها عند الظهيرة، نحو الثانية والنصف، وقت خروج الموظفين ، وفي غمرة ازدحام الناس المتبضعين أو اللاهين أو الباحثين عن البضائع، ووسط شارع رئيسي عام في مدينة رئيسية هي الأخرى، جعلها علامة بارزة أشبه بالوشم على الوجه .

هو شارع ... لكنك ماأن تنعطف اليه حتى تخاله نهراً : ناس يتدفقون في لجة ناس . من الجهات الأربع يتوافدون جداول ، مثل أرتل التمل ، ليصبوا على ضفتيه ، أو يفيضوا الى مجراه ، مختلطين مع السيارات الصغيرة والعربات والشاحنات . يتجمعون ، متزاحمين ، في بداية ممر المشاة ، ما أن يأذن الشرطي حتى يندفعوا وهم يقطعون الشارع كتلة تتلاطم بكتلة تندفع باتجاه معاكس ، تتداخلن لحظة ، وفي لحظة تنفكان باتجاهين متغايرين... تنسكبان على رصيفي الشارع المتقابلين ، ثم تنفرطان الى أياد تحمل خبزاً وأكياساً وخضاراً وعلباً وزيتوناً ، وأياد تطوح فارغة، وأخرى تهدل ، وأخرى تهرش رؤوساً . أرجل تدق الأرض ، وأرجل تمسحها ، وأخرى تتقافز عليها . صدور تنتفخ وتضممر وهي تشهق هموماً وتزفر هموماً . غاية من وجوه . وجوه مثلومة بكآبة ، ووجوه مخددة بالنوهان ، وأخرى وأخرى تنزّ فزعاً مفزعاً . ناس يختلطون بناس . يتشعبون ويتفرعون ثم — سريعاً كما وفدوا الشارع — يتلاشون في منعطف ، أو

حارة ، أو دكان ، أو بيت ، خلف شجرة ، أو داخل خربة . ينسابون متلاحقين كما في مجرى نهر ..

وكما لو سقط حجر ضخّم في مجرى نهر ، انغرزت سيارة رمادية في مطلع الشارع ، وسط ممر المشاة تماماً ، عند نهاية خطين كحليين رسمتهما العجلات باندفاعها المفرمل الذي اطلق زعيقاً ربيعاً، جارحاً، مثل صيحة امرأة ، فاستيقظ الناس من سدرهم ، وراحوا ينساحون دوائر حول السيارة التي فتحت ، بومضة برق، أبوابها الأربعة الجانبية والخامس الخلفي ، وانقذف منها رجال هائجون، في حين دجّت على الأرض ، أمام السيارة ، رزمة أوراق تخلص منها شاب ، وانطلق يعدو محاولاً اختراق دوائر الناس التي تشكّلت بفعل المباغته ربما ، أو دافع الفضول ، أو أثر زعيق العجلات الذي علا ، رغم الضجيج، على الضجيج .

انبلجت ، في طرفة عين ، لحظة تباعد الناس ، ثغرة في محيط دوائرهم ، انقذف من خللها الشاب المذعور، وتقاذف خلفه رجال السيارة الملهوجون ، فأدركه أحدهم وشده . نثر الشاب جسده فأقلت ، وكاد يدركه آخر لولا أن التفّ ، مثل شهاب، خلف دوائر الناس المشدوهين ، وانخرط متعرجاً بين صفوفهم يلحقه رجل يهدد بسلاح ويطلق أوامر : «أمسكوه ... أمسكوا المجرم .. أمسكوه» .. ويلتفّ ، من الجهة المقابلة داخل دوائر الناس ، الرجال الآخرون لملاقاته .

آن أطبق رجال السيارة على الشاب، راح يصرخ كمن يفضح سراً : «كذابون... أمسكوهم عني... كذابون.. أمسكوهم عنكم» فيما الشفاه السفلى للناس، الذين انفرطت دوائرهم ، تنقلب متحيّرة ، وعيونهم تجحظ بجياد ، أو تغور بدعة وشيء من الحزن ، وفيما التوت اعناق بعضهم مستغربة بين اكتاف متقوسة تسأل ، واستقرت حبة سبيحة بين أصبعين هامدين ، ولادت امرأة برجل، وتحوقل شيخ ، وبسملت عجوز .

ولحظة شرعت تنهال فيه قبضات رجال السيارة وأرجلهم على
مساحة جسد الشاب المنتفض مثل دجاجة لم تذبح جيدا . وقبل أن
يرفعوه ليحشوه من الباب الخلفي ويحشوا معه صياحه المخنوق : «ياناس...
امسكوهم عنكم .. ياناس ... أمسكوهم عنكم» وقبل أن يلجوا ويصفقوا
الأبواب خلفهم وتقلع السيارة تنهب الشارع ... أخذت الأوراق تنطير
وتتبعثر تحت وخلف أرجل الناس . الأرجل التي تفرقت وهي تمسح
الأرض ، أو تجمعت كتلة تتلاطم بكتلة في ممر المشاة أول الشارع الرئيسي
المكتظ بناس يتدققون في لجة ناس . يتشعبون ويتفرعون ، ثم — سريعا كما
وفدوا — يتلاشون في منعطف ، أو حارة ، أو بيت ، خلف شجرة ، أو
داخل خربة ... ينسابون متلاحقين كما في مجرى نهر ..

نيسان / ١٩٨٨

القول

كاد يصرخ ويولول مناديا «ياأمي...»، لكنه خاف!
تذكّر حدقته الجامدتين في محجريهما كمخليبي قط بري ، ونظراته
القاصمة ، واحمرار وجهه الناري ، ومنخريه النافثين مثل فوهتي بركان...
فتكّوم على نفسه وأحمد انفاسه ذائبا في رعبه ...

ثم خطر له أن يلتفت ليرجوه ألا يفعل . يتوسل اليه بكل
مايعتصره من فزع... لكن رائحة الخمر الكثيفة التي فاحت اليه للتو
خدّرت عزمه وأشعرته ان لاجدوى من خاطره ، ثم راحت تعيد الى ذاكرته
هيئته ساعة يعود الى البيت مخمورا ، فاجرا ، يرنحه الشراب والسهر .

«آه لو كانت أمي حيّة» رجائي قلبه وشدّ على جفنيه المطبقتين كما
لو كان يجهد في انتزاع رخام القبر عن جثة أمه ، يعيدها اليه ، ثم يحتمي
بها — كما إعتاد أن يفعل في حياتها — كي تذهب معظم الصفعات
والركلات هباء ، أو تلتقاها أمه ، وهي تخفيه خلفها ، تحميه من سوزته
المجنونة ، دون أن تمن أو تشكو، وكأنّ حماية ولدها غاية تهوّن عليها آلامها
وتعطىها القدرة على تحمل كل المصائب والبلاوى التي تحلّ عليها من
زوجها .

أكانت أمه ، إذن ، تخمّن حدوث ذلك ، ولذا ذابت في حياتها
توصية وتلحّ في أن يخبرها بكل مايعرض عليه أو يحدث معه ؟! أترأها
كانت تحتاط في سرها فما برحت تحدّره من أي شخص ، قريب أو بعيد،
وتصر على أن يلازمها باستمرار، وخصوصا في الليل حين يأوى الى

النوم !؟ .

أتكون قد حدثت بما لم يحدس به أو يعيه أو يخمنه ، فبقي
هاجسها سراً عليه طي الغموض ، حتى انزلق مع قدمها من على سطح
الدار ودُفن معها ، فلم يستطع تبينه ومعرفته إلا في غياهب تلك الليلة ؟
بلى ... حدث وعاندها مرات في وصاياها ... وحرد مرات أخرى
أيام كانت تستنكر مجيء أصدقائه خلال وجود أبيه في البيت وغياها عنه ،
أو تؤنبه إذا لم يعلمها قبلاً كي تترك مشاغلها وترعاهم ... سوى أنه رغم
زعله وضيقة من أوامرها وتحفظاتها ، كان يمثل ويرضى من مجرد ضمة أو
قبلة أو توسل حنون من عينيها ..

ماعتن على باله ان يسألها سبب حرصها الزائد عليه ومداراتها
الغالبية ، وقلقها المتخوف من بقائه مع أبيه أو انفرادها بعيداً عن ناظرها .
وحتى حين فعل وسألها لماماً ، مألح وما أصر ... فابتسامتها ورجاؤها
ومداعتها كانت كافية لتطفيء دهشته وتساؤلاته الحارة ، فتقول وتعيد :
« كرمي لي يأمي ... كرمي لي يا حبيبي » ، فيلين وينسى .
أبوه أيضاً كان يحيره في معاملته ! بل كان هو الحيرة ذاتها ! حيرة

عجيبة ومفرعة تقرض عقله الغض !

فحيناً يضربه ضرباً عنيفاً أعمى لأية زلة أو ذنب بسيط أو خطأ
عابر ... وحيناً يغفر له أكبر عيوبه وذنوبه فيدله ويحضنه ويلاعبه كما لو
كان جرواً ودوداً . جلفاً معه قاسياً عليه مرعباً رعباً قاصماً مرة... وليناً
هيناً متودداً الى درجة مريبة مرة أخرى . وليلة يعود مخموراً يتعتعه الشراب
— وكثيراً ماعاد — يتحول الى شخص آخر تماماً يكاد لايتعرفه لشدة
غضبه وهياجه الذي يحتاج البيت بما فيه ومن فيه ، فيزعق في وجه أمه
ويلعنها دونما سبب ، يصفعها بكل قوته ، شاداً شعرها وملقياً بها أرضاً ،
ثم يلتفت اليه ، يقوِّضه بنظراته كأنما يبغى التهامه ، يهجم عليه فيكاد

يكسّر أضلاعه ، في حين تندفع امه — على آلامها — لتحتجز بينهما ...
غير انه كثيراً ما أحس به يتسلل الى غرفته ، في وقت متأخر من الليلة
ذاتها ، ليداعب خصلات شعره ويمسح على وجنتيه ويديه وفخذه ، ثم
يلفّه ويضمّه الى صدره ، فيؤجج حيرته ويهيج استغرابه ، إذ يبدو له
أبوه — في تلك اللحظات — شخصاً آخر غريباً كل الغرابة ، لا يشبه أباه
المخمور ولأباه الصاحي !!

أكان لا بدّ ان تجتمع عليه كل الوقائع والظروف ، فتموت أمه بغتة
عام بلغ العاشرة من عمره، ثم لاسباب يجهلها يمكث أبوه ، رغم شبابه ،
دون زواج من امرأة اخرى، ويُترك هو وحيد أبيه دون أخ أو أخت ... حتى
يعرف السرّ الرهيب الكامن في قلق امه وهو اجسها ، والتناقض المريب في
طباع ابيه ومعاملته وتتكشف له مأساته في تلك الليلة ، ثم تتوالى
عليه عارية بعد ذلك ؟

هذه الهموم والافكار والتساؤلات والخاوف جميعها داهمته دفعة
واحدة ، في غيبش الدقائق القليلة الفاصلة بين نومه العميق واستيقاظه
المباغت ... بين ظنه أن كابوساً ركبته في منامه وإحساسه بانثناء حافة
فراشه وسماعه أزيز السرير من ثقل الجسد خلفه وفوحان رائحة الخمر في
عتم غرفته، ثم لوبان يدين ضخمتين وتخطّفهما على جسده الطري كله لوباناً
وتخطّفاً شهوانياً ، موتوراً، مرتعشاً !

لحظتها، كاد يصرخ ويولول منادياً «ياأمي...» ، لكنه خاف !
خاف، لو فعل ، أن يجنّ أبوه ويلتمه فلا تستطيع أمه الغائبة أن
تحتجز بينهما وتصدّ بجسدها هياجه عنه . خاف لو التفت ان تنغرز عيناه
الجاحظتان في جسده . خاف من ساقيه القويتين وهما تلتفان حول خصوه
النحيل، تلويبان ثم تتشابكان ثم تتنافران كأفعتين معمرتين ، وفكر أن
يرجوه . أن يضرع اليه . أن يقبل قدميه .. لكن صاحب الجسد الضخم

خلفه ، والذي لايشبه مخموراً ولاصاحياً ، كان يرغي ويزيد. يجأر ويفتح .
يتلوى ويختلج .. فيما أصابع يديه المضطربة تفك أزرار منامته ثم
تسحبها .

عندها، مثل سحابة ، تهادت أمه في مخيلته ..
كان جسدها عارياً، مسحى ، مثل جسده الآن . تتزاحم عليه
الأيادي كما على جسده ، تقلب النسوة جسد أمه فينقلب معها . يسفحن
الماء الساخن فوق الصابون ، فيحس بجسده يكتوي بماء حار، لزوج ،
ينساح على فخذه . برهتها ، زعق بما تبقى في روحه من روح :
«ياأمي....» ، فلا التفتت ولادّت . وحدها أيادي النسوة كانت تتقاطع
على جسدها لتحشو فمها وانفها وأذنيها بمزق من قطن أبيض ، فيغصّ
بندائه ، وتضيق رثاه ، ثم تذوي الغرفة وتذوب عن عينيه في ظلامها
الأبكم ...

تموز / ١٩٩٠

القصص

- ١ — الناس .. الناس ٩
- ٢ — شتاء طويل ١٧
- ٣ — ماذا قلت يا أبي ؟ ٢٥
- ٤ — أصعد قاسيون ... وأنادي ٣٣
- ٥ — صباح ذلك الأحد ٤٣
- ٦ — النحنحات ٥١
- ٧ — الصقيع ٥٧
- ٨ — ساعة الظهيرة ٦٥
- ٩ — المهاجس ٧١
- ١٠ — المرحاض ٧٩
- ١١ — مثل حجر في نهر ٩٣
- ١٢ — الغول ٩٩

يصدر قريباً

- ١ — رامي السهم الأبيض
(رواية للفتيان)
٢ — أرغون
٣ — تاريخ فينيقية الشمالية
٤ — الجنرال (رواية)
٥ — مجنون السا
جيمس هوستن
ترجمة: دلال حاتم
د. سامي الجندي
جان ري كوكي
ترجمة: ناظم الجندي
آلان سيليتو
ترجمة: عبد العزيز عروس
أرغون
ترجمة: دكتور سامي الجندي

صدر عن دار الجندي

- ١ — بيت الأرواح (رواية)
٢ — تصورات العالم في
الفكر الاسلامي (دراسات)
٣ — المعتقل (رواية)
٤ — الفطيرة الطائرة (رواية
للفتيان)
٥ — تقرير الى غريكو
٦ — الشمس وأصابع الموتى (شعر)
٧ — في البدء كانت الثورة
(مسرحية)
ايزابيل الليندي
ترجمة: د. سامي الجندي
د. ابراهيم عاتي
ليجسون كايرا
ترجمة: عبد العزيز عروس
جان روداري
ترجمة: دلال حاتم
نيكوس كزانتزاسكي
ترجمة: ممدوح عدوان
الشاعر علي الجندي
د. سامي الجندي